من بلاغة آيات الحج والعمرة
فى سورة الحج

د/ سلامة جمعة على داود
أستاذ مساعد فى كلية اللغة العربية بإيتاى البارود

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)
[البقرة ٢٠١]

(الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ) [الأعراف ٤٣]، اللهم صَلِّ على سيدنا محمد عبدك ورسولك، وصل على المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات .

وبعد

فهذا القسم الثالث من بلاغة آيات الحج والعمرة فى القرآن الكريم، يتناول آيات الحج والعمرة فى سورة الحج، ويجتهد فى تحليلها تحليلا بلاغيا قدر الطاقة . وهى السورة التى سُمِّيَتْ باسم هذه الفريضة، وجاءت آيات الحج والعمرة فيها متتابعة بدون فاصل بينها، ابتداء من الآية ٢٥ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الحج ٢٥] إلى الآية ٣٧ (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) [الحج ٣٧]، فهذه ثلاث عشرة آية متتابعة بلا فاصل .

وعُنِيَ البحث ببيان مناسبة الآيات لسياق السورة ومقصدها، كما حاول إظهار موقع كل عظة جاءت فى آيات الحج فى السورة وتدبُّر أسرار ذلك فى كل آية قدر الطاقة. ومن الله جل جلاله أستمد العون، وهو حسبى ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

من بلاغة آيات الحج والعمرة فى سورة الحج

سورة الحج سورة تحمل اسم هذه الفريضة تعظيما لها ورفعا لشأنها وتنبيها على أنها من الإسلام بمكان، وليس فى القرآن الكريم سورة باسم الصلاة مع أنها عماد الدين ولا تسقط عن المكلف بحال، والصيام ليس له سورة باسمه مع أنه فرض عين يتكرر كل عام بخلاف الحج فهو مرة واحدة فى العمر، وكذا الزكاة لمن وجبت عليه تتكرر كل عام مرة أو أكثر، وليس لها سورة باسمها ؛ ولعل من أسرار ذلك أن الحج شعيرة يجتمع فيها أكبر جمع للمؤمنين كل عام على توحيد الله تعالى وعبادته من كل فج عميق ؛ وللاهتمام بالاجتماع والوحدة كان للحج سورة باسمه وللجمعة سورة باسمها ٠

وسميت " سورة الحج " مع أن أحكام الحج وشعائره مذكورة فى غيرها، ومع أن آية فرض الحج على الناس، وهى قوله تعالى (وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) [آل عمران ٩٧] ليست فى " سورة الحج " ؛ ولعل سبب التسمية راجع إلى مجيىء قوله تعالى فى هذه السورة (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) [الحج ٢٧] ؛ فالخليل إبراهيم عليه السلام أول من أذن فى الناس بالحج استجابة لأمر الله تعالى، والحج منذ هذا الأذان شعيرة ماضية ٠

والله تعالى أعلم٠

واستهلت سورة الحج بقوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ٠ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) [الحج ١، ٢]، وهذا استهلال قوى مزلزل يصور قيام الناس من قبورهم للبعث والحساب عندما ينفخ فى الصور، وما يكون عند هذه الزلزلة من أفزاع وأهوال، ومشهد الناس فى الحج أقرب المشاهد شبها بذلك، وأحفل مشاهد الحج حشدا للناس واجتماعا يوم عرفات وبخاصة عند الإفاضة، وهو فى سورة البقرة وليس فى سورة الحج، ولعل سورة الحج راعت المناسبة بين خروج الناس من قبورهم عند زلزله الساعة وخروجهم من كل فج عميق لحج البيت العتيق، كما صورته السورة فى قوله تعالى (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) [الحج ٢٧]، بَعْثُ الناس للحج من كل فج عميق فيه شبه من بعثهم من قبورهم يوم القيامة فى تعدد الأماكن وكثرتها وانتشارها وتفرقها، فالموتى يبعثون من قبورهم من كل فجاج الأرض، والحجيج يفدون إلى البيت العتيق من كل فج عميق، وأذان سيدنا إبراهيم الخليل ﷺ فى الناس بالحج أسمع الناس جميعا من لَدُن أَذَّنَ صلوات الله وسلامه عليه إلى أن تقوم الساعة فيه تقريب للنفخة التى تُسْمِعُ مَن فى القبور فيخرجون من الأجداث إلى ربهم يَنْسِلُون ؛

ولهذا لم يرد أذانه ﷺ فى الناس بالحج إلا فى هذه السورة التى افتتحت بذكر زلزلة الساعة ٠

وذهول كل مرضعة عما أرضعت ووضع كل ذات حمل حملها – وهما من الكنايات العالية التى تدل على الهول والفزع والاضطراب وتفرُّغ كل إنسان لنفسه وانشغاله بمصيره ولقاء ربه – قريب منه في الحج الانشغال عن الأهل والأحبة ؛ فيفارق الزوج زوجه والوالد ولده والأخ أخاه والخل خله، ويترك الحاج كل شواغله إلى شاغل واحد وكل همومه إلى هم واحد، قاصدا ربه، راجيا عفوه وغفرانه ٠

وقوله تعالى (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا) [الحج ٢] ذُكِرَ فيه الحمل والرضاعة وهما فى بداية عهد الإنسان بالدنيا، وهذا مناسب جدا لرجوع الحاج كيوم ولدته أمه ؛ قال صلى الله عليه وسلم (من حَجَّ هذا الْبَيْتَ فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسُقْ رَجَعَ كيوم وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) (١) ٠

وفى استهلال السورة بزلزلة الساعة إشارة إلى أن الحج حدثٌ مهمٌ فى حياة المؤمن ينبغى أن يُحْدِثَ زلزلة فى حياته، فيتحول بعده إلى الأحسن والأهدى ٠

ودخل السياق إلى ذكر آيات الحج فى السورة عن طريق ذكر البيت الحرام الذى جعل الله تعالى حجه والعبادة فيه للناس جميعا، وبَوَّأَ لخليله إبراهيم عليه السلام مكانه وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام٠ وتخلص السياق إلى آيات الحج أحسن التخلص، فبين يدى آيات الحج قسَّم الله تعالى الناس فريقين متخاصِمَينِ: الذين كفروا، والذين آمنوا، وذكر ما لكلٍّ منهما بأسلوب المقابلة:

فالذين كفروا في النار، والذين آمنوا فى الجنة ٠

والذين كفروا قُطِّعَتْ لهم ثياب من نار، هذا لباسُهم، والذين آمنوا وعملوا الصالحات يُحَلَّوْنَ فى الجنة أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فيها حَرِيرٌ ٠

والذين كفروا يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، والذين آمنوا تَجْرِى مِن تَحْتِهِم الْأَنْهَارُ ٠

والذين آمنوا عقيدتهم فى الدنيا الإيمان وعملهم هو العمل الصالح، والذين كفروا عقيدتهم فى الدنيا الكفر الثابت المتأصل فى قلوبهم وعملهم المستمر الدائم هو الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام ٠

فصلت الآيات هذه المقابلة وجعلت صد الكفار عن سبيل الله والمسجد الحرام مدخلا إلى ذكر بعض أحكام الحج ومناسكه، وإليك هذا السياق القريب، قال تعالى:

---

(١) صحيح البخارى فى الحج ، بَاب قَوْلِ اللَّهِ عز وجل"ولا فُسُوقَ ولا جِدَالَ فى الْحَجِّ " ٢/٦٤٦ برقم ١٧٢٤ ٠

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الحج ١٩ – ٢٥] ۝

ويلاحظ أن آيات الحج فى سياق السورة جاءت مكتنفةً بين الحديث عن جهاد الكفار والإذن بقتالهم ؛ للدلالة على أن أركان هذا الدين وشعائره لابد لها من قوة تحميها وتصونها وترد عنها صد الصادّين وعدوان المعتدين ۝ روت كتب السنة أن قوله تعالى (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ) نزل فى المتبارِزِينَ يوم بدر من المسلمين: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، وعبيدة بن الحارث، وعلى بن أبى طالب – وهم أول من برز للمخاصمة بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضى عنهم – للكفرة من بنى عمهم: عُتْبَة بن ربيعة وشَيبة بن ربيعة والوليد بن عُتْبَة؛ وكان أبو ذر رضى الله عنه يُقْسِمُ أنها نزلت فيهم ؛ وقال عَلِىُّ ابن أبى طَالِبٍ رضى الله عنه " أنا أَوَّلُ من يَجْثُو بين يَدَى الرحمن لِلْخُصُومَةِ يوم الْقِيَامَةِ " [(١)] ۝ هذا بين يدى آيات الحج وهو فى شأن المبارزة يوم بدر، أما بعد آيات الحج فنجد التصريح القاطع فى الإذن للمؤمنين بالقتال دفاعا عن عقيدتهم ؛ قال تعالى (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ)[الحج ٣٩،٤٠]، ففيها إذن للمؤمنين بالقتال، وهذا الإذن كان سابقا على غزوة بدر ؛ ففى السياق – بناء على هذا– تقديم وتأخير ۝

ومن تناسب الآيات فى هذا السياق أن الذين كفروا وُصِفُوا فى قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) [الحج ٢٥] بصدهم عن شيئين، الأول: صدهم عن سبيل الله أى عن الإيمان بالله ؛ ولذلك أخرجوا أهل الإيمان من ديارهم بمكة بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ؛ وهذا يتناسب ويتجاوب مع قوله تعالى فى وصف الذين آمنوا (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) ۝ والشىء الثانى الذى يصد عنه الكفار هو المسجد الحرام الذى جعله الله للناس سواءً العاكف فيه والباد، وهذا يتناسب ويتجاوب مع قوله تعالى بعد آيات الحج (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً)، ثم ذكر ربُّنا أنه ينصر أهل الإيمان ويمكنهم من المسجد الحرام لأنهم يقيمون الصلاة ويحيون شعائر الدين الحق فقال

(١) صحيح البخارى باب قتل أبى جهل ١٤٥٨/٤ برقم ٣٧٤٧ ۝ وينظر نظم الدرر٥/١٤٣

تعالى (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [الحج ٤١] ٠

وهذا السياق شبيه بسياق آيات الحج فى سورة البقرة ؛ فجاءت آيات الحج فيها فى سياق صد كفار قريش للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن العمرة عام الحديبية ؛ وجاء فيه الإذن للمؤمنين بقتال من قاتلهم عند المسجد الحرام (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَـدُواْ إِنَّ اللّـهَ لاَ يُحِـبِّ الْمُعْتَـدِينَ) [الحج ١٩٠] إلى آخر الآية ١٩٤ ؛ وغزوة بدر الكبرى كانت فُرْقانا وفتحا مبينا، وصلح الحديبية كان كذلك، وسماه القرآن الكريم فتحا مبينا، وكثير من كتب التفسير تذكر أن قوله تعالى فى سورة الحج (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) [الحج ٢٥] نزل فى صد كفار قريش الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن العمرة عام الحديبية ؛ وهذا السياق المتشابه بين آيات الحج فى السورتين يقيم علاقة وثيقة بين الحج والجهاد لإعلاء كلمة الله وقتال الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، والحج والجهاد كلاهما بيان لوحدة الأمة وقوتها واجتماعها ٠

* * *

قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الحج ٢٥] ٠

لما ذكرت الآيات السابقة العذاب الذى أعده الله تعالى للذين كفروا من الثياب التى قُطِّعَتْ لهم من نارٍ يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميم ٠٠ ذكرت هذه الآية من جرائم هؤلاء الكفار أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ٠

وأُعِيدَ وَصْفُهم بالكفر فى قوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) لمعانٍ، منها: الدلالة على أن هؤلاء الصادين عن سبيل الله والمسجد الحرام هم أنفسُهم الذين كفروا الذين (قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ٠ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ٠ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ)، فالآية الأولى صرحت بعذابهم والثانية صرحت بقبح أعمالهم، وليس شىء أقبح ولا أخزى من الصَّدّ عن دين الله ومنع الطائفين القائمين الركع السجود عن البيت الحرام الذى جعله الله للناس سواء ٠ ومنها: الدلالة على أن وصفهم بالكفر هو رأس الأمر، وهو سبب صدهم عن سبيل الله والمسجد الحرام ٠

والفعل الماضى (كَفَرُوا) يدل على تحقق وصفهم بالكفر وأنه عندهم عقيدة راسخة هى فى مقابل عقيدة الإيمان الراسخة التى عبر عنها بالفعل الماضى (آمنوا) فى قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) [الحج ٢٣]

• والفعل المضارع فى قوله (وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) وقع موقعا يثير الانتباه لتغيير صيغة الفعل من الماضى فى (كَفَرُوا) إلى المضارع (وَيَصُدُّونَ) ؛ وهذا من فرائد القرآن الكريم فى عطف الصد عن سبيل الله على الكفر ؛ فكل ما جاء فى القرآن الكريم من ذلك التزم صيغة الماضى فى الفعلين كما فى قوله تعالى:

– (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً) [النساء ١٦٧] •

– (الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ) [النحل ٨٨] •

– (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) [محمد ١] •

– (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ) [محمد ٣٢] •

– (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)[محمد ٣٤] •

– (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)[الفتح ٢٥]

والفعل المضارع فى قوله (وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) يدل على الاستمرار والدوام، أى أن صدهم عن سبيل الله والمسجد الحرام مستمر دائم لا ينقطع ؛ فهو صفة دائمة وعادة ودَيْدَن ؛ لأن القوة المحركة له وهى كفرهم ثابتة دائمة راسخة، فلن يزول صدُّهم عن سبيل الله والمسجد الحرام حتى تزول عنهم عقيدة الكفر ويدخل الإيمان فى قلوبهم •

وتاريخ صدهم وحربهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد بذلك ؛ فإن صدهم عن الإسلام ومنعهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن المسجد الحرام ظل ثابتا فيهم حتى جاء نصر الله والفتح ففُتِحَت مكة المكرمة ودخل كفارها فى دين الله أفواجا •

وصرَّح الطبرى بدلالة الفعل المضارع هنا على الاستمرار والدوام، قال: (عطف " يَصُدُّونَ " وهو مستقبل على " كَفَرُوا " وهو ماض لأن الصد بمعنى الصفة لهم والدوام ؛ وإذا كان ذلك معنى الكلام لم يكن إلا بلفظ الاسم أو الاستقبال ولا يكون بلفظ الماضى ؛ وإذا كان ذلك كذلك فمعنى الكلام: إن الذين كفروا من صفتهم الصد عن سبيل الله، وذلك نظير قول الله " الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ " [الرعد ٢٨]) [(١)]، وتابعه الزمخشرى فذكر أن الفعل " يَصُدُّونَ " يدل على أن (الصدود منهم مستمرّ دائم، كما يقال: " فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهَدِين " لا يُرَادُ حالٌ ولا استقبال ؛ وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة فى جميع أزمنته وأوقاته) [(٢)] •

(١) تفسير الطبري ١٣٨/١٧

(٢) الكشاف ١٠/٣ بتصرف

ولم يذكر الإمام عبد القاهر دلالة الفعل المضارع على الاستمرار والدوام، وحديثه قائم على أن المضارع يدل على التجدد والحدوث شيئا فشيئا، أما الثبوت والدوام والاستمرار فتلك دلالة الاسم [1] ولم يخرج الخطيب القزوينى وشراح تلخيصه عن هذا قِيْدَ أُنْمُلَة [2]، إلا ما كان من إشارة موجزة كلمح البصر للعلامة السيد الشريف الجرجانى فى حاشيته على المطول، قال (وإذا استعملت الأفعال فى الأمور المستمرة، كقولك " عَلِمَ الله" و " يعلم الله "، كانت مجازات من هذه الحيثية) [3]، وقال الألوسى (وقيل " يَصُدُّونَ " بمعنى صدوا ؛ إلا أنه عبر بالمضارع استحضارا للصورة الماضية تهويلا لأمر الصد) [4]

وسبيل الله الطريق الموصل إلى معرفته والقُرْب منه، والمراد دين الإسلام ؛ لأنه هو الموصل إلى ذلك، شُبِّهَ الإسلام بالسبيل الموصل إلى الله تعالى، ثم حذف المشبه واستعير له المشبه به استعارة تصريحية أصلية أخرجت المعنى العقلى فى صورة محسوسة، ولو قيل: ويصدون عن الإسلام لما كان له هذا الأثر الذى صور الإسلام بطريق تراه العيون ويضع كلُّ من هداه الله تعالى قدميه عليه ويسلكه، كما صور من ضل عن هذا الدين بمن أخطأ الطريق فأتعب نفسه وكدها بسيره فى طريق لا يوصله إلى الله جل جلاله ٠ وللحِسِّ أثرٌ لا يخفى فى إبراز المعانى ٠

قوله تعالى (وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) معطوف على (سَبِيلِ اللَّهِ) من عطف الخاص على العام؛ لأن سبيل الله يعنى الإسلام، والمسجد الحرام معلم من معالم الإسلام، وفى هذا العطف دلالة على أن المسجد الحرام من الإسلام بمكان لأن الكعبة قبلة أهل هذا الدين ومَهْوَى أفئدتهم وإليها حَجُّهُم واعتمارُهم وعندها طوافهم وسعيُهم ٠ ولم يتكرر الفعل (يَصُدُّونَ) مع المعطوف (الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

فلم يقل: ويصدون عن سبيل الله ويصدون عن المسجد الحرام ؛ للدلالة على أن الصد عن المسجد الحرام صد عن سبيل الله تعالى ٠

وعبر بالمسجد الحرام ولم يعبر بالكعبة أو البيت أو البيت الحرام أو البيت العتيق؛ لأن (الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) فيه مناسبة للسياق من ناحيتين، الأولى: أن المسجد فيه معنى السجود وهو أقرب ما يكون فيه العبد من ربه، فمن صد عنه صد عن عبادة الله تعالى والقرب منه؛ ففيه تقبيح وتشنيع على من صد عن المسجد ؛ لأنه عطَّلَ موضع العبادة أن يُذْكَرَ فيه اسمُ الله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ

(١) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ص ١٧٤- ١٧٧ت محمود شاكر ط الخانجى
(٢) ينظر الإيضاح مع البغية ١٨٣/١ ، ١٨٤ وشروح التلخيص ٢٥/٢ – ٣٠
(٣) حاشية السيد الشريف الجرجانى على المطول ص ١٥٠ مطبوعة بهامش المطول
(٤) روح المعانى ١٠ / ٢٠٥

عَذَابٌ عَظِيمٌ) [البقرة ١١٤]، كما مَنَعَ المصلين العابدين الراكعين الساجدين وحجبهم عن العبادة والقرب، وهذا من شنيع الفعال ؛ قال تعالى (أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى ۝ عَبْداً إِذَا صَلَّى) [العلق ٩، ١٠]، كما أن التعبير بالمسجد يناسب ذكر القيام والركوع والسجود فى قوله فى الآية التالية (وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) [الحج ٢٦]، وبين المسجد والسجود تناسب أبين من فلق الصبح، ولفظ (السجود) يَرُدُّ ختام هذه الآية إلى صدر الآية السابقة فى قوله (والْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) ؛ ولا نجد شيئا من هذا إذا وضعت " الكعبة " أو " البيت " موضع " المسجد " ۝

والثانية: أن وصف المسجد بـ (الْحَرَامِ) فيه زيادة فى التشنيع عليهم وتقبيح صدهم عنه؛ لأنهم لم يصدوا عن أىّ مسجد، بل عن مسجد له خصوصية وتميُّز وتفَرُّد ؛ وهو المسجد الحرام، الذى حرمه الله تعالى، وجعل حرمته فى نفوس العرب وهم فى الجاهلية حتى قال الفاروق عمر رضى الله عنه (لو وجدت فى الحرم قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه) [1]۝

وقوله تعالى (الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) الاسم الموصول وجملة الصلة فى محل جر صفة للمسجد، وصفه سبحانه أولا بأنه " الحرام " وكأن الحرمة اجتمعت فيه من أقطارها،ووصفه ثانيا بأنه جعله لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ،والوصفان تشنيع بمن يصدون عنه ۝

وضمير العظمة فى قوله (جَعَلْنَاهُ) دالٌّ على أن المسجد الحرام نعمةٌ من أعظم النعم، وكذا سائر الأوصاف التى اختص الله تعالى بها المسجد الحرام كالتسوية بين الناس جميعا فى أداء العبادة والشعائر فيه لا فرق بين المكى والآفاقى ۝

وقوله (لِلنَّاسِ) عام يشمل جميع الناس، وهو يتناسب مع قوله تعالى بعده (وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ) [الحج ٢٧] وقوله فى فاتحة السورة (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىءٌ عَظِيمٌ)، كما يتناسب مع قوله تعالى (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً) [البقرة ١٢٥] ومع قوله (وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)[آل عمران ٩٧]۝

و(سَوَاء) بمعنى مستو، وهو أبلغ من أن يقال: جعلناه للناس عامة أو كافة لما فى (سَوَاء) من تصريح بالمساواة ؛ فلا يتميز أحد عن أحد بحق العبادة فيه والطواف والسعى وسائر النسك ۝

(١) كنز العمال ١٤/٥١ برقم ٣٨٠٨٩

و(الْعَاكِفُ) اسم فاعل من عَكَفَ، والمراد المقيم بمكة، سُمِّىَ عاكفا لقربه من المسجد الحرام وتمكُّنه من أداء الفرائض والعبادة والطواف والسعى والتعبُّد [1] . وصوغ عاكف على وزن فاعل لمناسبة (الْبَادِ)، وهو أخف من " المعتكف " المصوغ من الخماسى " اعتكف " ؛ ولذا لم يرد " اعتكف " ولا " معتكف " فى القرآن الكريم .

والتعبير عن المقيم بالعاكف فيه إشارة إلى أن قربه من المسجد الحرام وتمكنه من التعبد فيه فيه حريٌّ بأن يرقق قلبه ويهذب سلوكه فيُمَكِّنَ البادى الطارىء الذى يروم زيارة المسجد الحرام من زيارته وييسر له كل سبيل، لا أن يصده عنه ويضيق عليه سبله ومساربه ؛ لأن من ذاق لذة القرب من الله جل جلاله أعان كل متقرب إليه سبحانه ؛ ليذوق كما ذاق .

و(الْبَادِ) اسم فاعل من " بدا " أى عاش فى البادية، والمراد الطارىء على مكة المكرمة لزيارة المسجد الحرام وأداء الحج والعمرة والتعبُّد فيه، ويسمى الآفاقى، أى القادم من أُفُق من الآفاق وليس مقيما بمكة المكرمة، وقد يكون من البدو ساكنى البادية أو من غيرهم من أهل المدن والحواضر والأمصار، وفى التعبير بالبادى دلالة على أنه يعيش فى مطارح بعيدة عن المسجد الحرام

ليكون فى مقابل العاكف المقيم المجاور للمسجد الحرام، فكلاهما سواء فى حق العبادة فى المسجد الحرام، لا يختص به العاكف دون البادى، ولا يُقَدَّمُ بفضيلة مجاورته وقربه من المسجد الحرام على البادى ؛ فبين العاكف والبادى ما يلحق بالطباق ؛ لأن العاكف يعنى القريب المجاور والبادى يعنى البعيد النائى، وبين القريب والبعيد طباق ظاهر . والضد الحقيقى للبدوى هو الحضرى ؛ وفى التعبير بالعاكف دلالة على القرب من المسجد الحرام والتمكن من التعبد فيه ولفظ الحضرى لا يدل على ذلك . وفى التعبير بالبادى إشارة إلى أن أهل مكة أهل حضر ومدنية بفضل المسجد الحرام الذى جمع فيها من كل الثقافات فكانت " أُمَّ القُرَى " وموئلَ العلم ومُجَاوَرَ العلماء .

وحذفت الياء من البادى فى خط المصحف فكتبت (الْبَادِ) للتخفيف، والأصل " البادى" بإثبات ياء المنقوص، وفى هذا التخفيف مناسبة لعدم استقرار الزائر بمكة المكرمة ومُكْثِه بها، فهو زائر طارىء يقضى عبادته ثم يَعْجَلُ إلى دُوَيْرَةِ أهله، كالضيف ما يلبث أن يحل حتى

يرتحل، ويؤيد هذا ما جاء من أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه –كان يدور على الحُجَّاج بعد قضاء النسك بالدِّرَّةِ ويقول: يا أهل اليمن يمنكم، يا أهل الشام شامكم، ويا

(١) ينظر غرائب القرآن للنيسابورى ٨١/١٧ بهامش تفسير الطبرى

أهل العراق عراقكم؛ فإنه أبقى لحرمة بيت ربكم فى قلوبكم ٠ وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحجون ثم يرجعون، ويعتمرون ثم يرجعون، ولا يجاورون [١]

ولم يذكر فى هذه الجملة القرآنية الشيء الذى يستوى فيه العاكف والبادى فى المسجد الحرام ما هو ؟ والذى عليه جمهور المفسرين أنهما سواء فى العبادة وأداء المناسك من الطواف والسعى والصلاة عند المقام وفى حجر إسماعيل وغير ذلك، وهذا ما يؤيده السياق ويُعْلِيه ؛ لأنه ذُكِرَ فى سياق صد الكفار للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن المسجد الحرام، ومعلوم أنه كان صدا لهم عن أداء العمرة والعبادة فيه [٢]، ويؤيد هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم (يا بنى عبد مناف، إن وُلِّيْتُمْ من هذا الأمر شيئا فلا تَمْنَعُنَّ طائفا طاف بهذا البيت وصلَّى أَيَّةَ ساعةٍ شاء من ليل أو نهار) [٣]، والتصريح بذكر المسجد الحرام فى الآية دالٌّ على أن الصد عنه بوصفه بكونه مسجدا يقصده الناس للحج والعمرة والعبادة، ولا يتناسب مع هذا ما ذكره بعضهم من أن المراد استواء العاكف فيه والبادى فى النزول بمكة المكرمة حيث شاء من منازلها وامتلاك أرضها ودورها [٤]٠

قوله تعالى (وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) جملة شرطية دالة على أن عقاب الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله والمسجد الحرام أن يذيقهم الله من عذاب أليم، فدلَّ جواب الشرط " نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ " على خبر " إنَّ " المحذوف فى قوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) وفى حذف الخبر إيجاز، كما أفادت الجملة الشرطية عموم هذا الجزاء لكل من يريد فى المسجد الحرام ميلا عن الحق وعدوانا وظلما فيشمل الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله والمسجد الحرام ؛ لأن الكفر والصد عن الإيمان بالله تعالى وعن المسجد الحرام من أعظم صور الميل عن الحق ومن أشد الظلم، كما يشمل غيرهم ٠

وقوله " يُرِدْ " أى يَهُمّ، وترتُّبُ العقاب على مجرد الإرادة دون أن تقترن بالعمل الموجب للعقاب من خصائص مكة المكرمة، والسيئات تضاعف فيها كما تضاعف الحسنات ؛ ولذا كره بعض الصحابة رضوان الله عليهم والصالحين الإقامة بمكة المكرمة[٥]، وفى الآية تعظيم لحرمة المسجد الحرام ومكة المكرمة، وحثٌّ على اغتنام الأوقات فيها

(١) ينظر إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى ٢٤٣/١ ط دار المعرفة ، وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ٤٩/٤ ط دار صادر
(٢) ينظر تفسير الطبرى ١٠٣/١٧ وروح المعانى ٢٠٧/١٠
(٣) أخرجه الدارقطنى فى سننه باب جواز النافلة عند البيت فى جميع الأزمان ٤٢٣/١ ، والبيهقى فى السنن الكبرى باب الاستكثار من الطواف بالبيت ما دام بمكة ١١٠/٥
(٤) ينظر روح المعانى ٢٠٧/١٠ وغرائب القرآن ٨٠/١٧ والتحرير والتنوير٢٣٧/١٧
(٥) ينظر البحر المحيط ٥٠٠/٧ وروح المعانى ٢٠٨/١٠ ، ٢٠٩

بالعمل الصالح، وترهيبٌ من اجتراح السيئات والمعاصى فيها، قال الجمال الطبرى (ت ٦٩٥ هـ): (إن المعصية وإن كانت فاحشة حيث وجدت لكنها فى حضرة الله وفى فناء بيته ومحل اختصاصه أفحش، وكما أن المعصية تتضاعف عقوبتها بالعلم ؛ إذ ليس عقاب من يعلم كعقاب من لا يعلم، وبشرف الشخص فى نفسه، كما قال الله تعالى فى حق أزواج النبى صلى الله عليه وسلم (يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) [الأحزاب ٣٠]، وبشرف الزمان، كالمعصية فى شهر رمضان والرفث مدة الإحرام، فكذلك أيضا لا يبعد أن تتضاعف عقوبة المعصية بسبب شرف مكان الحرم وعظم حرمته، وأىُّ شىء أعظم من مبادرة الملك فى حرمته، ومخالفته فى محل حضرته) [(١)] . والضمير فى " فيه " يعود إلى المسجد الحرام، ومكة كلها تبعٌ له فى ذلك، وخُصَّ المسجد الحرام لأن إرادة الإلحاد والظلم وارتكاب الفواحش والمعاصى فيه أقبح وأبشع .

والإلحاد: الميل عن الحق والاعوجاج عنه، ومنه اللَّحْدُ وهو الشَّقُّ الذى يكون فى جانب القبر موضِع الميت لأَنه قد أُمِيل عن وسطه إلى جانبه [(٢)].

وفى قوله بإلحاد استعارة تصر يحية أصلية، شُبِّهَت المعصية فى المسجد الحرام بإلحاد الحافر أى ميله فى حفره كاللحد يكون مائلا فى جانب الحفرة لا فى وسطها، بجامع الميل عن القصد فى كل، ثم حذف المشبه واستعير له المشبه به، والاستعارة أخرجت ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، فصورت المعصية وارتكاب المنهيات بصورة محسوسة، وفيها تذكير لمن يريد الإلحاد فى المسجد الحرام باللحد الضيق الذى يُقْبَرُ فيه ويُوَارَى الثَّرَى وحيدا بعيدا، وهذا واعظ وزاجر .

والباء فى قوله (بِإِلْحَادٍ) فيها أربعة أوجه، الأول: أنها زائدة للتوكيد، والأصل ومن يرد فيه إلحادا بظلم، وهذا أكثر الوجوه ذكرا فى الكتب، ونُسِبَ إلى أبى عبيدة والأخفش، وهو قول بعض نحويى البصرة، ومنه (وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ) [المائدة ٦] أى وامسحوا رؤوسكم، وقول الشاعر:

نحن بنو جَعْدَةَ أصحابُ الفَلَجْ نَضْرِبُ بالسَّيفِ ونَرْجُو بالفَرَجْ

(١) التشويق إلى حج البيت العتيق لجمال الدين محمد بن المحب الطبرى (ت ٦٩٥) ت د/ عبد الستار أبو غدة ص ٢٥٣ ط دار الأقصى ط أولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م

(٢) ينظر المفردات ٤٤٨ ولسان العرب " لحد "

أراد نرجو الفرج [١] . وذكر الخطَّابى (٣٨٨ هـ) أن هذا الحرف يوجد كثيرا فى كلام العرب الأُوَل، وإن كان يَعِزُّ وجودُه فى كلام المتأخرين لِمَا دَخَلَ كلامَهم من التغيير [٢] .

والوجه الثانى: التضمين، أى أن ذكر الباء فى " بإلحاد " دل على أن " يُرِدْ " مُضَمَّنٌ معنى " يتلبس " أى ومن يتلبس فيه بإلحاد، وهو اختيار أبى حيان [٣] .

والثالث: أن الباء لم تدخل على المفعول ؛ لأن المفعول محذوف والتقدير عند الزمخشرى: ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما، وحُذِفَ المفعول ليتناول كل متناول [٤]، ورجح الرازى هذا الوجه [٥]، والتقدير عند ابن عطية: ومن يرد فيه الناس بإلحاده [٦] .

والرابع: أن الباء للمصاحبة والملابسة، أى تقع منه إرادة الشىء مصاحَبَةً تلك الإرادة ومتلبسة بالإلحاد أى بالجور والميل عن الحق والقصد [٧] .

والوجه الرابع أولى الوجوه وأقربها إلى ملامسة أسرار هذا الحرف، والمصاحبة والملابسة تدل على أن الإلحاد ملابس للإرادة ومصحوب بها، فهذا المسىء فى المسجد الحرام تلبست إرادته بالإلحاد فكان كمن يضبط متلبسا بجريمته فيكون آكد فى قيام الحجة عليه وأثبت فى وقوع الجريمة . الباء تدل على أن هذه الإرادة السيئة تكون مكشوفة ظاهرة لله جل جلاله ظهور من يضبط متلبسا بجريمته قائما يزاولها، ولا شىء أثبت – فى عُرْف الناس – فى ارتكاب الجريمة من ضبط الجانى متلبسا بها . وفى هذا تبشيع وتشنيع من وجه آخر، وهو أن من يريد المعصية فى المسجد الحرام كمن يواقعها بين يدى ربه سبحانه ويقترفها تحت سمعه سبحانه وبصره . والقول بزيادة الباء أو بالتضمين أو بحذف المفعول بمعزل عن هذا المعنى، فيبقى سر هذا الحرف عنها بعيدا محجوبا .

وإذا كان المراد بالإلحاد الميل عن الحق وجميع المعاصى فذِكْرُ الظلم عقبه تأكيد ؛ لأن المعاصى والميل عن الحق لا يكون إلا ظلما وعدوانا، وإذا كان المراد بالإلحاد مجرد الميل عن شىء إلى شىء فذِكْرُ الظلم بعده بيان لكون المراد الميل عن الحق خاصة لا كل

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ١٠٣/١٧ ، ١٠٤ ، والمحرر الوجيز ١١٦/٤ ، ومفاتيح الغيب ٢٦٢/١١ وتفسير القرطبى ٤٤٢٧/٧ والتحرير والتنوير ٢٣٩/١٧

(٢) ينظر بيان إعجاز القرآن لأبى سليمان الخطَّابى ص ٤٥ – ٤٨ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن

(٣) ينظر البحر المحيط ٥٠٠/٧

(٤) ينظر الكشاف ١١٠/٣

(٥) ينظر مفاتيح الغيب ٢٦٢/١١

(٦) ينظر المحرر الوجيز ١١٦/٤

(٧) ينظر نظم الدرر ١٤٥/٥ وروح المعانى ٢٠٨/١٠

ميل ؛ فيدخل فيه الشرك بالله تعالى وصد الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن المسجد الحرام وجميع المعاصى والمنهيات؛ لأن هذا كله ميل عن الحق والقصد، وفيه احتراس عن صد الكفار عن المسجد الحرام فإنه صدٌّ بحق؛ لأنهم نَجَسٌ لا يقربون المسجد الحرام، وكذا صد الحائض والجنب والخائن [1] .

والباء فى (بِظُلْمٍ) للملابسة أو السببية [2]، والمعنى على الأول أن الإرادة متلبسة بالإلحاد أى بالمعصية ومتلبسة بالظلم، والمعنى على الثانى أن الإرادة متلبسة بالإلحاد بسبب الظلم، فالظلم سبب إرادة المعصية وقصدها، ودخول باء السببية على الظلم جار فى الذكر الحكيم كما فى قوله تعالى (فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ) [النساء ١٦٠] .

وقوله تعالى (نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) جواب الشرط، والإذاقة مستعارة لإصابته بالعذاب ونزوله به استعارة تصريحية تبعية، أى أنه يدرك أثر هذا العذاب كما يدرك الذائق مرارة الطعام البشع، ووصفُ العذاب بالأليم أى البالغ الألم يناسب التعبير بالإذاقة ففيه ترشيح للاستعارة .

وفى إفراد الضمير فى (نُذِقْهُ) حملٌ على لفظ (مَنْ) فى قوله (وَمَن يُرِدْ) لأن لفظها مفرد، ولو حُمِلَ على المعنى لقيل " نذقهم " بضمير الجمع، وهو يناسب – فى الظاهر – التعبير بأسلوب الجمع فى قوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)، ولعل فى الحمل على اللفظ إشارة إلى قلة من يريد الإلحاد بظلم فى المسجد الحرام تعظيما لحرمة المسجد الحرام الذى جعل الله تعالى له فى القلوب مهابة وجلالا، وفيه أيضا إشارة إلى مضاعفة ما يجد من ألم وَحْدته وتقلبه فى العذاب وحيدا .

* * *

قوله تعالى (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) [الحج ٢٦] .

لما ذكر فى الآية السابقة صَدَّ الكفار عن المسجد الحرام أتبعه بأن الله تعالى عَرَّفَ الخليل عليه السلام مكان البيت وأمره بتطهيره ليكون عَلَمَاً على التوحيد ومُتَعَبَّدا للطائفين والقائمين والركع السجود، وفى هذا عودٌ إلى تقريع الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام بأنهم لم يحافظوا على التوحيد الذى جُعِل البيت علما له ولم يحافظوا

(١) ينظر نظم الدرر ١٤٥/٥ وروح المعانى ٢٠٨/١٠ وغرائب القرآن ٨١/١٧
(٢) ينظر روح المعانى ١٠/ ٢٠٨

على طهارة البيت بل دنسوه بالأوثان التى نصبوها فيه آلهة، كما صدوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عنه [١].

واستهلال الآية بـ (إِذْ) الظرفية فيه حثٌّ على استحضار هذا الوقت الذى بوأ الله تعالى فيه لإبراهيم مكان البيت ونهاه عن الشرك وأمره بتطهير البيت ؛ لأن هذه نعمة ينبغى استحضارها عند ذكر البيت الذى أبقى الله تعالى أثره بعد الطوفان ليكون عَلَمَاً على التوحيد .

و(بَوَّأْنَا) يعنى بَيَّنَّا له مكان البيت ووطَّأْناه له وأسكناه فيه وجعلناه مباءة أى مرجعا يرجع إليه [٢]، وفى (بَوَّأْنَا) معنى الرجوع الذى يناسب رجوع البيت متعبدا كما كان قبل الطوفان، كما يناسب المقصد من ذكر آى الحج فى هذه السورة وهو التذكير بالبعث والنشور وأن المرجع والمصير إلى الله جل جلاله .

و(مَكَانَ الْبَيْتِ) موضعه، وفى لفظ مكان دلالة على أن البيت لم يبق منه بعد الطوفان إلا موضعه الذى كشفه الله جل جلاله لخليله إبراهيم عليه السلام، فرفع إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت وإسماعيل كما قال سبحانه (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ) [البقرة ١٢٧] .

قوله تعالى (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) سبق تحليله فى آيات الحج فى سورة البقرة . وعطف (الْقَائِمِينَ) على (الطَّائِفِينَ) بالواو لأن القيام عبادة غير الطواف، فآذنت الواو باستقلال كل منهما عن الآخر . وعطف (الرُّكَّعِ السُّجُودِ) على (الْقَائِمِينَ) مع أن الركع السجود هم القائمون أى المصلون ؛ إذ الصلاة جامعة للقيام والركوع والسجود ؛ لتنزيل التغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الذات ؛ فلما كان للركوع والسجود هيئة مختلفة عن القيام ومغايرة له جيىء بالواو الدالة على المغايرة . وتُرِكَتِ الواو بين (الرُّكَّعِ السُّجُودِ) فلم يقل: الركع والسجود (لأن السجود من جنس الركوع فى الخضوع [٣]

وقال هنا (وَالْقَائِمِينَ) ولم يقل " والعاكفين " ؛ لأن العاكف ذُكِرَ قبلُ فى قوله (سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) [٤]، وقال البقاعى (لأن العكوف بالقيام أقرب إلى مقصود السورة) [٥]، أراد أن القيام أقرب لمقصود السورة ؛ لأنه يُذَكِّرُ بالقيام من القبور عند البعث والقيام يوم الحشر، وتلك لمحة موفَّقَة من البقاعى ؛ أجزل الله تعالى له المثوبة .

(١) ينظر تفسير الطبرى ١٠٥/١٧ وروح المعانى ٢١٠/١٠
(٢) ينظر الكشاف ١٠/٣ وروح المعانى ٢١٠/١٠ ونظم الدرر ١٤٦/٥
(٣) ينظر روح المعانى ٢١٢/١٠
(٤) ينظر غرائب القرآن ٨٢/١٧
(٥) نظم الدرر ١٤٧/٥

* * *

قوله تعالى (وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) [الحج ٢٧ – ٢٩] ۝

قوله (وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ) معطوف على قوله (وَطَهِّرْ بَيْتِىَ)، أى أن الله تعالى بوأ لإبراهيم عليه السلام مكان البيت ونهاه عن الشرك وأمره بأن يطهر البيت الحرام وبأن يؤذِّن فى الناس بالحج، وهذه الثلاثة هى الأسباب التى من أجلها بوأ الله تعالى لإبراهيم مكان البيت ۝

و(أَذِّن) بمعنى أَعْلِم الناس بالحج عن طريق النداء فيهم بأن الله كتب عليهم الحج، روى أنه عليه السلام لما أمره الله تعالى بهذا (قال: رَبِّ وما يَبْلُغُ صَوْتِى ؟ قال الله تعالى: أَذِّنْ وعلىَّ البلاغ ۝ قال: رب كيف أقول ؟ قال: قل يا أيها الناس ؛ كُتِبَ عليكم الحجُّ، حَجُّ البيت العتيق ۝ فسمعه مَن بينَ السماء والأرض، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون)[1] ۝

وفى (أَذِّن) بشارة بسماع النداء ودخوله فى الأُذُن لاشتقاقهما من مادة واحدة ۝ وحرف الجر (فِى) من قوله (وَأَذِّن فِى النَّاسِ) دال على أن هذا النداء سيصل إلى الناس ويتمكنون من سماعه تمكنا تاما كأنهم صاروا أُذُناً واعية، وكأن هذا الأذان أُفْرِغَ فى آذانهم وصُبَّ فيها صَبًّا ۝

و(النَّاس) عام يشمل جميع الناس من لدن أَذَّنَ خليل الله صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة، وإيصال أذانه عليه السلام إلى هؤلاء جميعا أمرٌ خارق لم تجر به العادة ؛ ولذا تعجب الخليل صلوات وسلامه عليه حين أمره ربُّه بذلك فقال (رب وما يبلغ صوتى ؟ قال: أَذِّنْ وعلىَّ البلاغ) ۝ وكان ابن عباس يقول (عنى بالناس أهل القبلة ؛ ألم تسمع أنه قال " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً " [آل عمران٩٦] إلى قوله (وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً) [آل عمران ٩٧] يقول ومن دخله من الناس الذين أمر أن يؤذن فيهم وكتب عليهم الحج فإنه آمن) [2] ۝

---

(١) المستدرك فى تفسير سورة الحج ٤٢١/٢ برقم ٣٤٦٤ ، وقال الحاكم " حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " ۝ وينظر تفسير الطبرى ١٠٦/١٧ وروح المعانى ٢١٢/١٠

(٢) ينظر تفسير الطبرى ١٠٧/١٧

وفى التعبير بالحج إيجاز ؛ لأنه اسم جامع لما تضمنته هذه الشعيرة من أعمال كالطواف والسعى والوقوف بعرفات والرمى ٠٠ الخ، ونظيره التعبير بالصلاة عما يكون فيها من قيام وركوع وسجود وقراءة وذكر ودعاء ٠٠ الخ ٠

وقوله تعالى (يَأْتُوكَ) أى يأتوا البيت الحرام الذى بنيته، جعل إتيانهم البيت الحرام إتيانا لإبراهيم عليه السلام للدلالة على أن من أتى البيت الحرام فقد استجاب دعوة خليل الله إبراهيم عليه السلام وأتى إليه ملبيا نداءه ٠

و(يَأْتُوكَ) جواب الأمر فى قوله (وَأَذِّن) وبناء الجملة على هذا التركيب يعنى أن الإتيان مسبب على الأذان، وأن إتيانهم إليه محقَّق لما أودع الله تعالى فى قلوبهم من حب هذا البيت وتعظيمه، قال الطاهر (جعل التأذين سببا للإتيان تحقيقا لتيسير الله الحج على الناس، فدل جواب الأمر على أن الله ضمن له استجابة ندائه ٠٠ ومن حكمة إتيان البيت للحج تَلَقِّى عقيدة توحيد الله بطريق المشاهدة للهيكل الذى أقيم لذلك حتى يرسخ معنى التوحيد فى النفوس ؛ لأن للنفوس ميلا إلى المحسوسات لِيَتَقَوَّى الإدراكُ العقلى بمشاهدة المحسوس) [١] ٠

و(رِجَالاً) يعنى مُشاة راجلين يسيرون على أرجلهم، جمع راجل، كقيام وقائم ونيام ونائم وصِحاب وصاحب وتِجار وتاجر [٢]، والراجل فى المعركة من يحارب على رجليه دون أن يركب، وضِدُّهُ الراكب، قال تعالى فى صلاة الخوف (فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً) [البقرة ٢٣٩]، وأكثر ما يستعمل الراجل فى مقام الحرب، ولعل إيثاره على التعبير بـ " مُشاة" لما فيه من إيجاد صلة وشبه بين الحج والجهاد ؛ فالحج كالجهاد فى المشقة ٠

وفى تقديم الراجلين على الراكبين دليل لبعض أهل العلم على أن المشى أفضل، وفى ذلك يقول ابن عباس – رضى الله عنه –: (ما آسَى على شىء فاتنى إلا أنى لم أَحُجَّ ماشيا حتى أَدْرَكَنِى الكِبَرُ، أَسْمَعُ الله تعالى يقول " يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ" فبدأ بالرجال قبل الرُّكْبَان[٣]، ولاشك فى أن المشى أشد مشقة وتعبا ٠ وذهب بعض أهل العلم إلى أن الركوب أفضل اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولكثرة النفقة، ولتعظيم شعائر الحج بأُهْبَةِ الركوب [٤]، قال النووى (الركوب فى الحج أفضل من المشى على المذهب الصحيح، وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حج

(١) السابق ١٧/ ٢٤٣ بتصرف
(٢) ينظر الكشاف ١١/٣ وروح المعانى ٢١٣/١٠ ومفاتيح الغيب ٢٦٦/١١
(٣) ينظر تفسير الطبرى ١٠٧/١٧ والبحر المحيط ٥٠٢/٧ وروح المعانى ٢١٤/١٠
(٤) ينظر تفسير القرطبى ٤٤٣٢/٧

راكبا"[١]، قال ابن حجر الهيثمى " أفضلية الركوب لأن ثواب الاتباع يربو على ثواب المشى ؛ لأن فى الاقتداء بفعله صلى الله عليه وسلم ما يربو على مضاعفة ثواب الحج ماشيا "[٢]، وإذا كان الركوب أفضل فتقديم الراجلين على الراكبين فى الآية لكون حالة المشى أغرب[٣] .

والواو فى قوله (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) للتقسيم بمعنى " أو " كقوله تعالى (ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً) [التحريم ٥]، أى يأتوك ما بين راجل وراكب، وفى هذا استيعاب لأحوال الآتين ؛ لأن إتيان الناس لا يعدو أحد هذين الوصفين [٤] .

وقوله (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) أى راكبين على كل بعير ضامر أو على كل ناقة ضامر . والضامر قليل لحم البطن، يطلق على المذكر والمؤنث، فيقال: بعير ضامر وناقة ضامر . ووصف الراحلة بالضمور يحتمل معنيين، الأول: أنها راحلة قوية مطيقة للسفر سريعة الحركة والسير لقلة لحم بطنها، والضمور من محاسن الرواحل والخيل لأنه يعينها على السير والحركة . والثانى: أنها راحلة مهزولة أتعبها بُعْدُ الشُّقَّة وطولُ السفر وأصابها بالضمور والهزال [٥] .

ولم يقل: يأتوك رجالا أو ركبانا كما قال فى صلاة الخوف (فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً) [البقرة ٢٣٩] لأن فى قوله (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) دلالة على الركوب مع وصف الرواحل بالضمور الذى يطوى وراءه شوق هؤلاء الركبان إلى البيت الحرام حتى صارت رواحلهم من طول الرحلة ضوامر مهازيل، تطوى الفيافى والقفار وتجوب الظَّلْمَاء، وتلبس من غُبار النهار مُلاءة كما تتسربل من ظلام الليل سربالا، تَخُبُّ وتَضَعُ، حتى تكون أنضاء من طول العناء والجهد ويكون راكبوها أنضاء كذلك كما قال الشاعر:

رأتْ نِضْوَ أسفارٍ أُمَيمَةُ شاحِباً على نِضْوِ أَسْفَارٍ فجُنَّ جُنُونُها

ولكن الشوق إلى زيارة البيت العتيق وأداء الفريضة حادٍ يحدو على المسير ولو شَطَّتْ الدَّارُ:

زُرْ مَن هَوَيتَ ولو شَطَّتْ بكَ الدَّارُ إنَّ المحبَّ لمن يَهْوَاهُ زَوَّارُ

وإذا قيل: ركبانا فإنه لا يدل إلا على مجرد الركوب وهو المقصود فى صلاة الخوف لأن المعنى إباحة الصلاة فى كلتا الحالتين رجالا أو ركبانا .

---

(١) كتاب الإيضاح فى مناسك الحج للنووى ص ٣٦ مطبوع مع حاشية ابن حجر الهيثمى عليه ط دار المكتبات

(٢) حاشية ابن حجر الهيثمى على كتاب الإيضاح فى مناسك الحج للنووى ص ٣٦ ، ٣٧ ط دار المكتبات

(٣) ينظر التحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٣ ، ٢٤٤

(٤) ينظر روح المعانى ٢١٣/١٠ والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٤

(٥) ينظر التحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٤

وبُعْد الشُّقة وطول الرحلة المفهوم من قوله تعالى (يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) باعث حثيث على اختيار الضوامر من الرواحل أعنى القوية الفتية السريعة لأنها هى المطيقة للسفر البعيد الشاق؛ وكذا من يحج ماشيا ينبغى أن يكون قويا مطيقا لذلك حتى لايلقى بنفسه إلى التهلكة ويتوه فى صحارٍ تَبِيدُ فيها البِيْدُ ويَضِلُّ فيها الذَّكِيُّ والبليد .

ومع قوة الرواحل الضامرة فإنها تصل مهزولة لأنها لَقِيَتْ من سفرها هذا نَصَبا ؛ وعلى هذا يكون التعبير بلفظ (ضَامِرٍ) مراعيا ضرورة اختيار القوى الفتى من الرواحل عند ابتداء الرحلة كما يراعى وصفها بالهزال والضعف عند انتهائها .

ومما يدل على اختيارهم القويَّ الفتيَّ من الرواحل فى سفر الحج ما جاء فى أبيات كُثَيِّر عزة المشهورة من وصفه الرواحل بأنها (دُهْمِ المَهارَى)، قال:

وَلَمَّا قَضَيْنَا من منىً كُلَّ حَاجَةٍ ومَسَّحَ بالأركانِ منْ هُوَ ماسِحُ
وشُدَّتْ عَلَى دُهْمِ المَهارَى رِحَالُنَا ولم يَنْظُرِ الغادِي الَّذِى هُوَ رَائِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأحَاديثِ بَيْننا وَسَالتْ بِأَعْناقِ الْمَطِيِّ الأبَاطِحُ

وتأنيث الضمير فى قوله (يَأْتِينَ) فيه معنى لطيف ذكره البقاعى، قال (ولما كان الضامر يطلق على كل من الذكر والأنثى من الجمال، وكانت الأنثى أضعف النوعين، فكان الحكم عليها بالإتيان المذكور حكما على الذكر الذى هو أشد بطريق الأَوْلَى، أسند إلى ضميرها فقال معبرا بما يدل على التجدد والاستمرار واصفا الضوامر التى أفهمتها "كل" (يَأْتِينَ)) [1] ؛ فتأنيث الضمير فيه تغليب للأنثى وهى الناقة لأنها أضعف فيشمل الإتيان الذكر وهو البعير من باب أَوْلَى، ولو قيل: " يأتون " لغلب الذكر أى البعير لأنه هو القوى المطيق للسفر، ولعل فى تغليب الأنثى إيماء إلى ما بلغ براكبها من الحنين إلى البيت العتيق ؛ لأن الناقة بالحنين أَعْرَفُ وأَذْكَرُ، كما فى قول الخنساء:

وَما عَجولٌ عَلى بَوٍّ تُطيفُ بِهِ لَها حَنينانِ إعلانٌ وَإسرارُ
تَرتَعُ ما رَتَعَت حَتّى إذا اِدَّكَرَت فَإنَّما هِيَ إقبالٌ وَإدبارُ
يَوماً بِأَوجَدَ مِنّى يومَ فارَقَنى صَخرٌ وَلِلدَهرِ إحلاءٌ وَإمرارُ

وقول ابن الرومى:

وإنِّى وإن مُتِّعْتُ بابْنىَّ بَعْده لَذاكرُه ما حنَّتِ النِّيبُ فى نَجْدِ

(١) نظم الدرر ١٤٧/٥

وفى التعبير بالجمع (يَأْتِينَ) حملٌ على معنى (كُلِّ) لا على لفظه ؛ لأن معناه جماعة الإبل الضوامر وهى جمع، ولو قيل: " يأتى " لحمل على لفظ (كُلِّ) لأن لفظه الإفراد [١] . والحمل على المعنى مناسب لما يهتف به النظم من الدلالة على كثرة الحجيج الذين يلبون نداء الخليل عليه السلام، كما دل عليه التعبير بـ " الناس " فى قوله (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) والتعبير بـ (كُلِّ) مرتين فى قوله (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) .

وإسناد الإتيان إلى الرواحل مجاز عقلى ؛ لأن الرواحل وسيلة الإتيان، وذكر الطاهر أنها سببه [٢]، وكونها وسيلة أقرب . وقال القرطبى (ردَّ الضمير إلى الإبل تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها، كما قال (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً) [العاديات ١] فى خيل الجهاد تكرمة لها) [٣] .

وقوله تعالى (يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) أى من كل طريق بعيد، والتعبير بـ (كُلِّ) للدلالة على كثرة الطرق التى يسلكها الحجاج قاصدين مكة المكرمة، وفى هذا كناية عن مجيئهم من بلاد كثيرة زرافات ووحدانا، تسيل بهم الشعاب والأودية، ولا تكاد تحصى السبل والمسالك التى يسلكونها، (عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى) [طه ٥٢] .

قال الراغب: (الفج: شُقَّةٌ يكتنفها جبلان، ويستعمل فى الطريق الواسع، وجمعُه فِجَاج، قال تعالى (يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً) [الأنبياء ٣١]) [٤] وقال الطاهر (غلب الفج على الطريق لأن أكثر الطرق المؤدية إلى مكة تُسْلَكُ بين الجبال)[٥].

وإذا كان الأصل فى الفج أن يكون شقة بين جبلين ففى التعبير به بدل الطريق دلالة على وعورة هذه السبل المكتنفة بين الجبال ؛ ومع ذلك فإن هذه الفجاج الوعرة وما فيها من مخاطر ومصاعب لاتقعد بالناس عن الحج ولا تضعف عزائمهم، فكيف إذا كانت السبل واسعة وممهدة ؟ لاشك أن إتيان الحجيج منها سيكون أسهل وأكثر ؛ ولذا عبرت الآية بالطرق الصعبة وهى الفجاج ليكون الإتيان من الطرق السهلة المذللة من باب أَوْلَى . وإذا غلب استعمال الفجاج فى الطرق الواسعة ففى التعبير بالفج دلالة على سعة هذه الطرق التى يسلكها الحجاج ؛ ليتمكن من السير فيها الجماء الغفير من قاصدى البيت العتيق الذين تهوى إليه أفئدتهم، وذكر لفظ " فجاج " فى القرآن مرتين، وهو فيهما للطرق الواسعة،

(١) ينظر الطبرى ١٠٦/١٧ والكشاف ١١/٣
(٢) نظم الدرر ١٤٧/٥
(٣) ينظر تفسير القرطبى ٤٤٣١/٧
(٤) المفردات : ٤٨٢/٢ " فجج "
(٥) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٥

قال تعالى (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)[الأنبياء ٣١]، (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً ٠ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً)[نوح ١٩، ٢٠] ؛ ففى التعبير بالفج حثٌّ على شكر النعمة في تذليل الأرض وبسطها وشق فجاجها الواسعة حتى يتيسر للناس الانتقال والسفر، ويتهيأ للحجاج الطرق السهلة الواسعة، وتلك نعمة تستوجب الشكر ٠

ووُصِفَ الفج بأنه عميق أى بعيد، والعمق بُعْدُ قعر البئر ونحوه، فهو بُعْدٌ إلى أسفل، ثم أطلق على البعد مطلقا على سبيل المجاز المرسل، أو هو استعارة بتشبيه مكة بمكان مرتفع والناس مُصْعِدُون إليه ٠ وقد يطلق على السفر إصعاد وعلى الرجوع انحدار أو هبوط [١] ٠

ولمح البقاعى مناسبة لطيفة بين الآية ومقصد السورة، فقال (إن الحجيج يأتون حفاة عراة ينتقلون من مشعر إلى مشعر ومن مشهد إلى مشهد، مجموعين بالدعوة، خاشعين للهيبة، خائفين من السطوة، راجين للمغفرة، ثم يتفرقون إلى مواطنهم، ويتوجهون إلى مساكنهم، كالسائرين إلى

مواقف الحشر يوم البعث والنشور، المتفرقين إلى دارى النعيم والجحيم، فيا أيها المصدقون بأن خليلنا إبراهيم عليه السلام نادى بالحج فأجابه بقدرتنا كرامة له من أراد الله حجه على بُعْد أقطارهم، وتنائى ديارهم، ممن كان موجودا فى ذلك الزمان، وممن كان فى ظهور الآباء الأقربين والأبعدين ! صَدِّقُوا أن الداعى مِن قِبَلِنَا بالنفخ فى الصُّوْرِ يجيبه كل من كان على ظهرها ممن حَفِظْنَا له جسده،أو سلطنا عليه الأرض فمزقناه، وما بين ذلك ؛ لأن الكل علينا يسير)[٢] ٠

قوله تعالى (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) [الحج ٢٨] ٠

لام التعليل فى قوله تعالى (لِيَشْهَدُوا) متعلقة بالفعل (يَأْتُوكَ) أى يأتوك لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ٠ والمراد بالشهود الحضور، أى ليحضروا منافع لهم، ونظيره فى آيات الصيام قوله تعالى (فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) [البقرة ١٨٥]، أى فمن حضر شهر رمضان فليصمه، وفى الشعر قول عنترة:

يُخبِرِكِ مَن شَهِدَ الوَقيعَةَ أَنَّنى ... أَغْشَى الوَغى وَأَعِفُّ عِندَ المَغنَمِ

وقوله: خاضَ العَجاجَ مُحَجَّلاً حَتّى إِذا ... شَهِدَ الوَقيعَةَ عادَ غَيرَ مُحَجَّلِ

(١) ينظر المصدر السابق
(٢) نظم الدرر ١٤٧/٥

وشاع التعبير بالشهود عن حضور وقائع الحرب، ففى مناقب سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه (شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها، وكان من الرماة المذكورين) [1]، والتعبير عن الحضور بالشهود فيه تركيز على المشاهدة لما لها من أثر بالغ فى الانتفاع بتلك المشاهد التى تظل حاضرة فى الذاكرة يأخذ منها المرء العبر والعظات والدروس النافعة، وفى ذلك دعوة إلى اليقظة حتى لاتمر هذه المشاهد المؤثرة على المرء وهو عنها غافل، وكم فى الحج من مشاهد هى أقوى أثرا فى نفس من يراها رأى العين من أن يقرأ عنها أسفارا وأجلادا (مجلدات) أو يسمعها من فم حاكٍ يقصُّ عليه خبرها وإن كان بليغا ؛ " فما راءٍ كمن سمعا " ٠

و(مَنَافِع) كلمة عامة تشمل المنافع الدينية والدنيوية، فمن المنافع الدينية إقامة المشاعر من الطواف والسعى والوقوف بعرفات ورمى الجمار والصلاة فى المسجد الحرام والذكر والدعاء

وإطعام البائس الفقير والقانع والمعتر ٠٠ إلخ، ومن المنافع الدنيوية التجارة وإصلاح المعايش، وهل كانت معايش العرب قديما إلا فى التجارة فى أشهر الحج، وكل ما يكون الحج سببا فيه من منافع الدين والدنيا فهو مندرج فى كلمة (مَنَافِع)، وهى كلمة جامعة لا يسد مسدها كلمة أخرى ؛ ولذا

استشهد بها بعض أهل العلم لإيجاز القِصَر وهو تقليل الألفاظ وتكثير المعانى [2]، ولو قيل: ليشهدوا مناسكهم لكان خاصا بالمنافع الدينية ٠ ولو قيل: ليتجروا لكان خاصا بالمنافع الدنيوية

وكل ما جاء بعد كلمة (مَنَافِع) فى سياق آيات الحج فى هذه السورة – من ذبح الهدى والأضاحى، والحلق أو التقصير وطواف الإفاضة وإطعام البائس الفقير والقانع والمعتر ٠٠ إلخ – كل ذلك من ذكر الخاص بعد العام ؛ لأنه كله من منافع الحج، وكأن هذه المنافع الخاصة ذُكِرتْ مرتين: مرة باندراجها تحت لفظ العام (مَنَافِع)، ومرة بأسمائها الخاصة بها، وفى هذا مزيد تأكيد على الحرص على اغتنام منافع الحج، وشكر الله جل جلاله على عمومها وخصوصها ٠

وتنكير (مَنَافِع) يحتمل أن يكون للتنويع، أى الدلالة على أنها نوعٌ خاصٌّ من المنافع، قال الزمخشرى (نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا

(١) المستدرك على الصحيحين فى مناقب أبى إسحاق سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ٥٦٩/٣ برقم ٦١١١

(٢) ينظر الصناعتين ص ١٧٦ وصبح الأعشى ٣٦٠/٢

توجد فى غيرها من العبادات، وعن أبى حنيفة – رحمه الله – أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج، فلما حجّ فضَّلَ الحج على العبادات كلها لِمَا شاهد من تلك الخصائص)[١]. ويحتمل أن يكون للتكثير، أى أنها منافع كثيرة، أو للعموم فتشمل جميع المنافع الدينية والدنيوية [٢].

وفى جمع (مَنَافِع) دلالة أخرى على الكثرة وأن الحج يغص بالمنافع التى يصعب الإحاطة بها . ووصف المنافع بأنها كائنة (لَهُمْ) فيه حثٌّ على شهودها وترغيب فى تحصيلها ؛ لأنها (لَهُمْ) أى لمصلحتهم، فهى تُصْلِحُ الفرد والجماعة والأمة كلها، والكَيِّسُ من حَرَصَ على ما ينفعه، قال صلى الله عليه وسلم (احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ) [٣]، وذكر البقاعى أن الله سبحانه جعل شهود هذه المنافع علة للإتيان فى قوله " يَأْتُوكَ " ؛ (لأن الإنسان ميال إلى الفوائد مستشرف إلى جميل العوائد، وهذه المنافع لهم لا للمعبود، دينية ودنيوية، فإنه كما جعل سبحانه تلك المواطن ماحية للذنوب جعلها جالية للقلوب، جارية على أحسن العوائد، سالبة للفقر، جابرة للكسر) [٤].

وقوله تعالى (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) معطوف على قوله (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) من عطف الخاص على العام ؛ لأن النحر من أعظم المنافع لما فيه من نفع الفقراء، وإطعام البائس الفقير والقانع والمعتر، وتحقيق التكافل والتراحم والتعاطف والتآلف، فضلا عن تطهير النفوس من داء البخل والأثرة وارتقائها إلى البذل والكرم ؛ ومن أجل ذلك قَدَّمَ الذكر الحكيم فى هذا السياق ذبح الهدى على الحلق أو التقصير وطواف الإفاضة التى جاءت بعد ذلك فى قوله تعالى (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)، وفى هذا التقديم براعة استهلال بتقديم ما يدل على الموضوع العام لآيات الحج فى السورة وهو نحر الهدى وذبح الأضاحى تقربا إلى الله جل جلاله ؛ فإن هذا هو قطب المدار لما بعد ذلك من آيات الحج ؛ فإن السياق تفرغ له تفرغا كاملا إلا تلك الجمل الثلاث التى ذكر الله تعالى فيها الحلق وطواف الإفاضة فى قوله (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ).

والأعمال الثلاثة المذكورة فى هذا السياق وهى الذبح والحلق أو التقصير وطواف الإفاضة هى جُلُّ أعمال اليوم العاشر من ذى الحجة يوم عيد الأضحى، أما رمى الجمار

(١) الكشاف ١١/٣
(٢) ينظر روح المعانى ٢١٥/١٠ والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٦
(٣) صحيح مسلم بَاب فى الْأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ والإستعانة بِاللَّهِ وَتَفْوِيضِ الْمَقَادِيرِ لِلَّهِ ٢٠٥٢/٤ برقم ٢٦٦٤
(٤) نظم الدرر ٥/ ١٤٨

فكَنَتْ عنه آية البقرة (وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى) [البقرة ٢٠٣] .

وقوله تعالى (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى ما رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) كناية عن النحر، وفيه إطناب ؛ إذ كان يكفى أن يقال: ولينحروا الأنعام فى أيام معلومات، وفرق كبير بين هذا وما جاء عليه النظم الشريف ؛ مما جعل العلامة الزمخشرى يقول (وقد حَسَّنَ الكلام تحسيناً بيناً أنْ جَمَعَ بين قوله " وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ" وقوله " عَلَى مَا رَزَقَهُمْ "، ولو قيل لينحروا فى أيام معلومات بهيمة الأنعام،لم تر شيئاً من ذلك الحسن والروعة) [١]، والحسن والروعة فى قوله تعالى " وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ" بينه الزمخشرى حين ذكر أن التسمية (كناية عن النحر والذبح بذكر اسم الله ؛ لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا ؛ وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلى فيما يُتَقَرَّبُ به إلى الله أن يُذْكَرَ اسمُه) [٢] . وسكت الزمخشرى عن بيان الحسن والروعة فى قوله تعالى " عَلَى مَا رَزَقَهُمْ " ؛ ونبه عليه من جاء بعده من أعلام المفسرين، فنبه البقاعى إلى ما فيه من تذكير بأن هذه الأنعام من رزق الله تعالى ولو شاء مَحَقَه [٣]، وذكر الألوسى أن فيها تشويقا فى التقرب بها إلى الرزاق، وتهوينا عليهم فى الإنفاق، مع ما فى ذلك من الإجمال والتفسير [٤]، وذكر الطاهر أنها أدمجت فى حكم النحر الامتنان بأن الله تعالى رزقهم تلك الأنعام، وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق بالإخلاص لله تعالى فى العبادة وإطعام المحاويج من عباد الله تعالى من لحومها وسد حاجة الفقراء بتزويدهم ما يكفيهم لعامهم[٥] .

وقوله تعالى (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) أى يقولوا (باسم الله) عند الذبح، ونظيره قوله تعالى (فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ) [الحج ٣٦]، وورد الذكر بالتكبير فى قوله تعالى (كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) [الحج ٣٧] ؛ قال القرطبى (وكان ابن عمر رضى الله عنهما يجمع بينهما إذا نحر هديه فيقول باسم الله والله أكبر ؛ وهذا من فقهه رضى الله عنه، وفى الصحيح عن أنس قال: " ضَحَّى النبي صلى الله عليه وسلم بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ، فَرَأَيْتُهُ وَاضِعًا قَدَمَهُ على صِفَاحِهِمَا، يُسَمِّى وَيُكَبِّرُ، فَذَبَحَهُمَا بيده ")[٦] .

(١) الكشاف ١١/٣
(٢) السابق
(٣) ينظر نظم الدرر ٥/ ١٤٨
(٤) ينظر روح المعانى ٢١٦/١٠
(٥) ينظر التحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٦
(٦) تفسير القرطبى ٤٤٥٨/٧

وفى ذكر اسم الله تعالى عند الذبح تعريض بأهل الكفر ومخالفة لهديهم ؛ فإنهم كانوا يذكرون أسماء الأصنام والأوثان على ذبائحهم[1] .

وذِكْرُ اسم اللهِ تعالى إذا أريد به الذبح فإنه يرد مقيدا بـ (اسم الله) ليكون ثمة فرق فى العبارة بين ذكر الله تعالى المراد به التسبيح والتحميد والتهليل، وذكره المراد به الذبح، فيختص الذبح باقتران الذكر بـ (اسم الله)، فحيث ورد فى القرآن العظيم الأفعال (يَذْكُرُوا – اذْكُرُوا – ذُكِرَ) وجاء بعده مباشرة وبلا فاصل (اسم الله) بإضافة (اسم) إلى (الله)، فهو مختص بذكر اسم الله تعالى عند الذبح، قال تعالى:

(فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ) [المائدة ٤] .

(فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) [الأنعام ١١٨] .

(وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ) [الأنعام ١١٩] .

(وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ) [الأنعام ١٢١] .

(وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ) [الأنعام ١٣٨] .

(وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) [الحج ٢٨] .

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) [الحج ٣٤]

(فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ) [الحج ٣٦] .

أما ذكر الله تعالى بمعنى التسبيح والتحميد والتهليل فإذا وردت معه كلمة (اسم) فلا تضاف إلى اسم الجلالة (الله)، بل تضاف إلى كلمة (ربك) كما فى قوله تعالى (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) [المزمل ٨] (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) [الإنسان ٢٥](وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) [الأعلى ١٥]، أو يؤتى بفاصل بين الفعل و(اسم الله) كما فى قوله تعالى (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً) [الحج ٤٠]، (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) [النور ٣٦]؛ ولعل ذلك لأن الذبح تعظيم لله تعالى فناسبه ذكره سبحانه بالاسم العلم (الله)، فهو المستحق للتعظيم جل جلاله، وقد كان الكفار يذبحون باسم اللات والعزى وغيرهما من آلهتهم الباطلة، كما أن صفة الربوبية لا تناسب مقام الذبح لما فيها من معنى التربية والرحمة ؛ ولذا لم يقل سبحانه: ويذكروا اسم ربهم على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، ولم يقل: فكلوا مما ذُكِرَ اسم ربكم عليه ؛ ومن أجل ذلك فالتعبير بقوله تعالى (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) فيه إرصادٌ بأن ما يُذْكَر بعده سيكون مما يُذبح ويُنْحَر من بهيمة الأنعام (عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ)، وهو إرصادٌ خاص بالنظم القرآنى الذى سلك فى التعبير عن التسمية عند الذبح هذا المسلك الذى لا محيد عنه .

(١) ينظر تفسير القرطبى ٧/٤٤٣٤ ، ومفاتيح الغيب ١١/ ٢٦٧

وقوله تعالى (فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ) هى العشر من ذى الحجة أو أيام التشريق الثلاثة التى تلى يوم النحر أو هى مع يوم النحر [1] . ووصف الأيام بـ (مَّعْلُومَاتٍ) أى مشهورات معروفات يناسب التعبير عن الحضور بالشهود فى قوله (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)، فشهود المنافع يعنى أنها معلومة ظاهرة دينية ودنيوية، وهذه الأيام معلومة مشهورة وفضلها معلوم مشهور . ووصف الأيام بـ (مَّعْدُودَاتٍ) فى آية (وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ) [البقرة ٢٠٣] يناسب ذكر التعجل والتأخر عقيبه (فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى) ؛ لأن التعجل والتأخر أساسهما عدد أيام الرمى بعد يوم النحر، يومان للمتعجل وثلاثة للمتأخر ؛ ولذا وصفت الأيام بـ (مَّعْدُودَاتٍ).

ووصف الأيام بـ (مَّعْلُومَاتٍ) كناية عن شهرتها، فهى أيام سار ذكرُها وملأ سمع الزمان، وليست مجاهيل تمر بأهل القلوب الحية والفطر السليمة وهم عنها غافلون، وكم من أيام تمر وليالٍ تَكُرّ وكأنها ما مَرَّتْ ولا كَرَّتْ .

ولم ترد كلمة (مَّعْلُومَاتٍ) فى القرآن الكريم إلا وصفا لأشهر الحج والأيام العشر من ذى الحجة، فقال تعالى (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ) [البقرة ١٩٧] (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) ؛ وفى هذا حثٌّ على اغتنام أشهر الحج فى الطاعة وتخصيص الأيام المعلومات منها بمزيد من الجد والاجتهاد .

وتقديم قوله (فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ) والفصل به بين (يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) و (عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) ولم يقل: وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ – وفى التقديم دلالة على أن للنحر فى مكة المكرمة فى الأيام العشر أيام الحج منزلة عظيمة ؛لما فيه من تعظيم شعائر الله جل جلاله، وأنه من منافع الحج المشهودة ؛ وفى حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ: أىُّ العمل أفضل ؟ قال:" العَجُّ والثَّجُّ " . قال أبو عبيد: العَجُّ رفع الصوت بالتلبية،والثَّجُّ نحر البُدْنِ لِيَثُجَّ الدَّمُ من المَنْحَر) [2] .

و" ما " فى قوله تعالى (عَلَى مَا رَزَقَهُم) موصولة مبهمة، وقوله (مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) بيان بعد إبهام [3]، وفى ذكر (الْأَنْعَامِ) بعد لفظ (بَهِيمَةِ) بيان آخر بعد إبهام ؛ لأن البهيمة مبهمةٌ فى كل ذات أربع ؛ فبُيِّنَتْ بالأنعام وهى الإبل والبقر والضأن والمَعْز[4] .

وذُكِرَتْ كلمة (بَهِيمَةِ) هنا ولم يقل: وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن الْأَنْعَامِ ؛ للتنبيه على نعمة البيان التى بها يذكر المؤمن اسم الله تعالى عند ذبح البهيمة العجماء التى

(١) ينظر تفسير الطبرى ١٠٨/١٧
(٢) المستدرك كتاب المناسك ١/ ٦٢٠ برقم ١٦٥٥ وقال الحاكم " صحيح الإسناد ولم يخرجاه "
(٣) ينظر التحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٦
(٤) ينظر الكشاف ١١/٣

لا تُبِين، وهو وهى من خلق الله جل جلاله، فسبحان من علم الإنسان البيان وجعل البهائم عجماوات لا تُبِين، وتلك نعمة تستوجب الشكر، وهذا مفادٌ من التضاد بين (يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) أى يقولوا باسم الله، و (بَهِيمَة) أى لا تتكلم ولا تُبِين ؛ ولهذا ذُكِرَت (بَهِيمَة) فى قوله (أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) [المائدة ١] فى فاتحة سورة المائدة لاستهلالها بقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ) لأن العقود تكون باللسان أى بالكلام والاتفاق بين المتعاقِدَيْنِ ٠

قوله تعالى (فَكُلُوا مِنْهَا) الأمر للندب عند الجمهور، فإن لم يأكل الحاج مما ذَبَحَ من الهَدْيِ أجزأه، فإن كان الذبح عن كفارة فليس له الأكل منه، بل يتصدق به كله[١] وفى الأمر بالأكل من الهَدْيِ حثٌّ على مخالفة أهل الشرك وتعريضٌ بهم ؛ لأنهم كانوا لا يأكلون منها ترفُّعَاً وتكبُّرا على الفقراء، فأمر الله تعالى المسلمين بالأكل منها لما فيه من مخالفة الكفار ومساواة الفقراء واستعمال التواضع ؛ ولذا حمل بعض العلماء الأمر فى الآية على معنى الوجوب [٢]

وتقديم الأمر بالأكل منها على الأمر بإطعام البائس الفقير للعناية بما يدل على تفرُّدِ هذا الدين واستقلاله ومخالفته هَدْىَ أهل الشرك الذين كانوا لا يأكلون من لحومها ترفُّعَاً على الفقراء وتكبرا ٠ ولتمام العناية بذلك آثر القرآن الكريم أسلوب الالتفات من الغيبة فى قوله (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) إلى الخطاب فى قوله (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) ثم عاد إلى الغيبة فى قوله (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)، وفى الالتفات بخطاب المؤمنين وأمرهم بالأكل من الهدى والأضاحى وإطعام الفقراء مزيد إيقاظ واعتناء بهذا الأمر الذى يعطى الأمة استقلالها وهَدْيَها الذى تخالف به هَدْىَ أهل الشرك، وفيه أيضا عناية بما يشيع التراحم والتعاطف والتكافل بين أفراد الأمة ٠

والتعبير بالإطعام فى قوله تعالى (وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) فيه مزيد ترقيق وترغيب فى إطعام البائس الفقير بالتنبيه على أن هذا اللحم طعامٌ له يقيم به أوده ويسد جوعه، ولو قيل: وأعطوا البائس الفقير، أو تَصَدَّقُوا عليه، لما دل على هذا ٠

و(الْبَائِس) من البُؤْسِ، وهو الشِّدَّةُ والفقر والمكروه، وبَئِسَ الرجل يَبْأَسُ بُؤْساً إذا افتقر واشتدت حاجته ٠ والبائس: الرجل النازل به بلية أَو عُدْمٌ يُرْحَمُ لما به ٠ والفَقْر: الحاجة وضده الغِنى، وأصل الفقير هو المكسور الفِقَار يقال: فَقَرَتْهُ فَاقِرَة، أى داهيةٌ تَكْسِرُ الفِقَارَ [٣]٠

(١) ينظر تفسير القرطبى ٤٤٣٦/٧
(٢) ينظر الكشاف ١١/٣ ومفاتيح الغيب ١١/ ٢٦٨ وروح المعانى ٢١٦/١٠ والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٧
(٣) ينظر المفردات ولسان العرب " بأس و فقر "

و(الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) أى الشديد الفقر، الذى جمع الفقر والزمانة، أو الفقر وضر الجوع، أو الفقر والطلب، أو الذى ظهر عليه أثر البؤس، وعن مجاهد قال: البائس الذى يسأل بيده، وإنما سمى من كانت هذه حاله بائسا لظهور أثر البؤس عليه بمد يده للمسألة، وهذا على جهة المبالغة فى الوصف له بالفقر ؛ فالفقير من صفة البائس وهو الذى ناله البؤس وشدة الفقر، وقد يستعمل البائس فيمن نزلت به نازلة دهر وإن لم يكن فقيرا، ومنه قوله عليه السلام (اللهم أَمْضِ لِأَصْحَابِى هِجْرَتَهُمْ، ولا تَرُدَّهُمْ على أَعْقَابِهِمْ، لَكِنِ الْبَائِسُ سَعْدُ بن خَوْلَةَ) قال الزُّهْرِيُّ: يَرْثِى له رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ تُوُفِّىَ بِمَكَّةَ [1] .

والجمع بين وصفى البؤس والفقر لمزيد الحث على إطعامه، فإذا كان الفقر وحده سببا للإطعام ؛ فالفقر مع نوازل الدهر وشدائده أو مع المرض والزمانة أو مع ذُلِّ التَّكَفُّف وسؤال الناس أولى .

وقدم (الْبَائِسَ) على (الْفَقِيرَ) لأن البؤس ظاهر على حاله وثيابه ومد يده بالسؤال، وفيه أيضا مناسبة لافتتاح الآية بقوله (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) فالشهود حضور ومشاهدة والبؤس على الفقير ظاهر مشاهد، وهذا تناسب بين فاتحة الآية وخاتمتها .

ولم يُذْكَر البؤس مع الفقر إلا فى هذه الآية ؛ ولعل من أسرار ذلك أن إطعام الفقير هنا يكون يوم عيد الأضحى وأيام التشريق، وأيام العيد أيام فرح وسرور بما وفق الله تعالى حجاج بيته الحرام إلى أداء المناسك ؛ ولذا راعى السياق هنا أن إطعام الفقير من لحوم الهدى والأضاحى يُدْخِلُ الفرح والسرور عليه ويُذْهِبُ ما علاه من بؤس وحزن ؛ فالتعبير بالبائس ناظر إلى تلك الحالة، وفيه أن إذهاب حزنه وبؤسه لايقل عن سد حاجته.

ومن اقتران (الْبَائِس) بـ (الْفَقِير) قوله صلى الله عليه وسلم فى الدعاء عشية عرفه (أنا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ، الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَجِيرُ) [2] ؛ ولعل قوله (أنا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ) ناظر إلى الآية الكريمة، وفيه إشارة إلى أن من دعا الله الكريم يوم عرفة وتذلل إليه وتَمَسْكَن وأقر بأنه البائس الفقير ؛ فعليه – إذا كان قادرا على الهَدْى – أن ينحر ويطعم البائس الفقير ليقرن القول بالعمل، فيمحو الله تعالى بؤسه وفقره ببركة دعائه وإطعامه البائس الفقير، ويكون تفريجه عن البائس الفقير سببا لأن يكشف الله عنه البؤس والفقر، فالجزاء من جنس العمل

وإيثار صيغة الإفراد فى (الْبَائِس الْفَقِير) والمعنى الجمع أى أطعموا البؤساء الفقراء حثاً على تقصى كل بائس فقير ؛ فلا يبقى فى مكة المكرمة فى أيام نحر الهدى والأضاحى

(١) ينظر تفسير الطبرى ١٠٩/١٧والمحرر الوجيز ١١٩/٤ والكشاف ١١/٣ والقرطبى ٤٤٤١/٧ وأحكام القرآن للجصاص ٧٢/٥ . والحديث فى البخارى بَاب قَوْلِ النبى صلى الله عليه وسلم اللهم أَمْضِ لِأَصْحَابِى هِجْرَتَهُمْ وَمَرْثِيَتِهِ لِمَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ ١٤٣١/٣ برقم ٣٧٢١

(٢) أخرجه الطبرانى فى الصغير ١٥/٢ والكبير ١٧٤/١١ من حديث ابن عَبَّاسٍ رضى الله عنهما

فى الحج الأكبر بائس ولا فقير ولا يبقى فى سائر بلاد المسلمين فى أيام عيد الأضحى بائس ولا فقير إلا ناله من لحوم الأضاحى نصيبا موفورا، ووراء هذا دعوة إلى إكثار ذوى الغنى واليسار من نحر الهدى والأضاحى ليطعموا البائس الفقير، ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، قدم من الهَدْى فى حجته مائة من الإبل . ودلالة المفرد على الاستقصاء ذكرها الزمخشرى فى قول الله عز وجل (وَلَوْ أَنَّمَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)[لقمان ٢٧] قال: (فإن قلت لم قيل " مِن شَجَرَةٍ " على التوحيد دون اسم الجنس الذى هو شجر ؟ قلت: أريد تفصيل الشجر وتَقَصِّيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بُرِيَتْ أقلاماً) (١) .

والبائس الفقير صفتان لشخص واحد ؛ فالبائس هو الفقير ؛ قال الإمام مالك: (سمعتُ أن البائس هو الفقير) (٢)، قال الطاهر (من أجل ذلك لم يعطف أحد الوصفين على الآخر لأنه كالبيان له) (٣) . وَتَرْكُ الواو مع البائس الفقير لصحة اجتماعهما فى موصوف واحد كتركها بين الصفات فى قوله تعالى (عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ) [التحريم ٥]، وذِكْرُها بين القانع والمعتر لكونهما ضدين كذكرها بين الوصفين المتضادين فى قوله تعالى فى ختام الآية السابقة (ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً) .

ومن لطيف فقه الإمام الشافعى وحسن استنباطه من البيان القرآنى ما ذهب إليه أولاً من أن الهدى والأضحية تقسم نصفين: يأكل صاحبها النصف، ويتصدق بالنصف ؛ لقوله تعالى " فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ " فذكر الله تعالى شخصين، الأول: الآكل، والثانى: البائس الفقير . وقال الشافعى مرة أخرى: يأكل ثُلُثاً ويُهْدِى ثُلُثاً ويُطْعِمُ ثُلُثا ؛ لقوله تعالى (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) [الحج ٣٦] ؛ لأن الله تعالى ذكر ثلاثة: الآكل والقانع والمعتر، لأن القانع والمعتر ضدان لا يجتمعان فى موصوف واحد ؛ إذ القانع من يقنع بما عنده ولا يتعرض للسؤال، والمعتر من يتعرض بالسؤال ؛وهذا التقسيم على الثلاثة هو مذهب أكثر العلماء(٤) . قلت: جاء تقسيم الهدى والأضاحى على ثلاثة فى قوله تعالى (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) لأن الحديث فيها عن نحر البُدْن وهى الإبل لقوله تعالى (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ) [الحج ٣٦]، والإبل أكثر الهدى والأضاحى لحما فتخصيصها بذكر القسمة الثلاثية مناسب لإفرادها بالذكر فى الآية ولكثرة اللحم ؛ وإن

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٦ وينظر البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ٢٧٤
(٢) موطأ مالك باب ما يُكْرَهُ من أَكْلِ الدَّوَابِّ ٢/٤٩٧ برقم ١٠٦١
(٣) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٦
(٤) ينظر تفسير القرطبى ٤٤٣٩/٧ وتفسير ابن كثير ٢٢٤/٣

كانت القسمة عامة فى كل ما ينحر للهدى والأضاحى من الإبل والبقر والضأن والمعز، وهى المقصودة ببَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فى قوله تعالى (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) ٠

ولم يقل: فكلوا منها وأطعموا الجائع ؛ مع أن الجوع سبب للإطعام ؛ لأن الجائع قد لا يكون فقيرا، فهو يملك ما يسد به جوعه ويُشْبِعُ بطنه ؛ لذا حَرَصَ القرآن الكريم على ذكر صفة الفقر، ولم يذكر فى موضعها الوصف بالجوع ٠

قوله تعالى (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيتِ الْعَتِيقِ) معطوف على ما سبق، واتصال النظم: وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ ٠٠ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ٠٠ ثُمَّ لْيَقْضُوا ٠٠ ؛ وبهذا تكون الأفعال المذكورة بعد (وَأَذِّن) مرتبطة به ارتباط الجواب بالشرط: (وَأَذِّن – يَأْتُوكَ)، وارتباط الفعل بسببه ؛ لأن شهود المنافع والنحر مرتبطان بالإتيان للحج ارتباط المسبب بالسبب، وكذا قوله (ثُمَّ لْيَقْضُوا٠٠) إلا أنه عُدِلَ به إلى أسلوب الأمر تنبيها على الاهتمام بقضاء المناسك والوفاء بالنذور والطواف بالبيت العتيق ٠

وذكر الطاهر أن (" ثُمَّ " للتراخى الرُّتْبِىّ لا الزَّمَنِىّ، فتفيد أن المعطوف بها أهم فى الغرض المسوق له الكلام من المعطوف عليه ؛ وذلك فى الوفاء بالنذر والطواف بالبيت العتيق ظاهر؛ إذ هما
نسكان أهم من نحر الهدايا، وقضاء التفث محمول على أمر مهم وهو قضاء مناسك الحج) [1] ٠

والتَّفَثُ من فرائد القرآن الكريم التى لم ترد إلا فى هذا الموضع، بل هى كلمة لم تعرفها اللغة إلا من هذه الآية، فهى مما ابتكره القرآن الكريم وأضافه إلى لغة العرب، (قال الزجاج: لا يَعْرِفُ أَهلُ اللغة التَّفَثَ إلاَّ من التفسير ٠٠ وقال أَبو عبيدة: لم يجئ فيه شِعْرٌ يُحْتَجُّ به) [2]

وحاصل ما ذُكِرَ في تأويل قضاء التفث يرجع إلى معنيين: الأول: أنه نَتْفُ الشَّعر، وقَصُّ الأَظْفار، والحَلْق والتَّقْصير، والأَخْذُ من اللحية والشارب والإبط، وتَنَكُّبُ كُلِّ ما يَحْرُم على المُحْرِم، وكأَنه الخُروجُ من الإحرام إلى الإحْلال ؛ وعلى هذا المعنى فالفعل يقضوا مجاز في الإزالة ؛ أى ليزيلوا الشَّعَث والدَّرَن والوَسَخ ؛ وعبر بالقضاء مراعاة لمضى زمان إزالته ؛ فعُدَّ الفعل قضاء لما فات ٠ والثانى: أن التَّفَث النُّسُك، يعنى مناسك الحج؛ من الطواف

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ٢٤٨ بتصرف
(٢) لسان العرب : تفث بتصرف ، وينظر بيان إعجاز القرآن للخطابى ص ٣٦ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ت محمد خلف الله أحمد ، د/ محمد زغلول سلام ط دار المعارف

والرمى والسعى ؛ والقضاء على هذا بمعنى الأداء، كأنه قيل: ثم ليؤدوا نسكهم ؛ وعبر عن النسك بالتفث لأن قضاء النسك يستدعى التفث ؛ فإن الحجاج مالم يحلوا شُعْثٌ غُبْرٌ ٠ والجمع بين المعنيين قريب لأن قضاء جميع المناسك لا يكون إلا بعد إزالة الشعر وإذهاب الشعث والدرن(١) ٠

والتَّفَثُ له نظير في القرآن الكريم وزنا وهو " الرَّفَثُ " يعنى الجماع ومقدماته، فالرفث قضاء الوطر بإشباع الغريزة الجسدية والتفث إذهاب الشعث والدرن أو قضاء المناسك وإشباع الروح بما تحضر وتشاهد من الآيات البينات فى الحج والعمرة ٠ والرفث لم يرد فى الذكر الحكيم إلا فى الصيام والحج، ففى الصيام قال تعالى (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)[البقرة ١٨٧]، وفى الحج (فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ) [البقرة ١٩٧] ؛ فالرفث حلال فى ليلة الصيام حرام على المحرم حتى يحل من إحرامه، ولو شاء الله تعالى لجعل الرفث حراما على الصائم ليله ونهاره كما جعله حراما على المحرم ليله ونهاره، ولكن الشارع الحكيم قرن التشريع بالرحمة فأحل الرفث ليلة الصيام مراعاة لطول المدة لأن الصوم شهر كامل، وقد قال جل جلاله فى آى الصيام (يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [البقرة ١٨٥]، وحرم الرفث على الحاج ليله ونهاره لقصر المدة التى يؤدى فيها مناسكه ٠

وإذا فُسِّرَ التفث بمعنى المناسك فإضافته إلى ضمير الحجيج (تَفَثَهُمْ) لأنهم هم الذين ألزموا أنفسهم بالمناسك حين عزموا عليها وشرعوا فيها ؛ وفى الإضافة تشريف لهم بنسبة تلك المناسك الشريفة إليهم ؛ لأن شرف العبد بما يقوم به من عمل وعبادة، ففى إضافة المناسك إليهم تشريف لهم لا تشريف للمناسك ؛ إذ المناسك فى ذاتها شريفة فاضلة ؛ وشرف العبد أن ينتسب إلى الأعمال الفاضلة الجليلة والشعائر العظيمة وأن يكون فردا من الأمة المرحومة، وهذه الإضافة تتنادى مع إضافة المناسك إلى ضمير الحجيج فى آية البقرة (فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ)[البقرة٢٠٠] ٠

والحَلْق والتَّقْصير يدخلان فى مفهوم التفث بمعنى إزالة الشَّعَث والدَّرَن والوَسَخ، وقد ذُكرا تصريحا فى قوله تعالى (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ) [الفتح ٢٧]، كنى بالحلق والتقصير عن أداء العمرة لأنهما آخر أعمالها ٠ وتقديم المحلقين على المقصرين فيه دليل على أن الحلق أفضل ؛ ولذا دعا لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالرحمة مرتين أو ثلاثا وللمقصرين مرة واحدة، ففى الحديث (عن نَافِعٍ عن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ رضى الله عنهما أَنَّ

(١) ينظر روح المعانى ٢١٧/١٠ والبحر المحيط ٧/ ٥٠٣ ولسان العرب " تفث "

رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال: اللهم ارْحَمْ الْمُحَلِّقِينَ . قالوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال: اللهم ارْحَمْ الْمُحَلِّقِينَ . قالوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال: وَالْمُقَصِّرِينَ) [1] . قال العينى (وفيه ما يدل على أفضلية الحلق لأنه أبلغ فى العبادة وأدل على صدق النية فى التذلل لله ؛ لأن المقصر مُبْقٍ على نفسه من زينته التى قد أراد الله تعالى أن يكون الحاج مجانبا لها، وهذا فى حقِّ الرجال دون النساء ؛ فليس على النساء إلا التقصير) [2] .

والتفت النظم من أسلوب الخطاب فى قوله (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) إلى أسلوب الغيبة فى قوله (ثُمَّ لْيَقْضُوا) فعاد إلى الأسلوب الذى جرى عليه آنفا فى قوله (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ) ؛ ففى النظم التفاتان: من الغيبة إلى الخطاب، ثم من الخطاب إلى الغيبة، وفى الرجوع إلى الغيبة تأكيد على أن تبقى جملة (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) مميزة فى النظم للتركيز على مخالفة هدى أهل الشرك بالأكل من الهدى، والتركيز على تمييز ما يعود بالنفع على البائس الفقير ؛ فهذان الأمران حَرَصَ النظم الشريف على إيقاظ القارىء وجذب انتباهه إليهما ؛ لأنهما من المقاصد الجليلة فى الحج التى ينبغى أن تكون حية فى وجدان الأمة وضميرها، ينبغى أن تحرص الأمة على أن يكون لها هَدْيُها وسَمْتُها الذى يضمن لها تفرُّدَها وتَمَيُّزَها وأن تكون كالغرة فى جبين الأمم، كما ينبغى أن تحرص الأمة على ما ينفع الفقراء كيلا يكونوا دولة بين الأغنياء ووبالا على المجتمع وعبئا ثقيلا ينوء به ؛ ومن أجل هذين المعنيين الجليلين والمقصدين العظيمين قطع النظمُ جَرْيَهُ على مَهْيَعٍ واحد ونمط واحد وهو أسلوب الغيبة وغَيَّرَ مسارَه، ونَبَّهَ وأيقظَ بأسلوب الخطاب .

واستدل الفقهاء على تقديم النحر على الحلق بتقديمه عليه فى القرآن الكريم، ففى آية البقرة (وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ) [البقرة ١٩٦] فجعل الحلق مرتبا على نحر الهدى، وفى سورة الحج قدم الأمر بالنحر فى قوله (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) على الأمر بالحلق والتقصير الداخلين تحت قضاء التفث فى قوله تعالى (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ)، لأن العطف بـ " ثم " للترتيب، واستدلوا لذلك أيضا بفعله صلى الله عليه وسلم، لما ثبت عنه أنه نحر قبل أن يحلق فى عمرة الحديبية وفى حجة الوداع، ولكن من حلق قبل أن ينحر فلا حرج عليه من إثم ولا دم ؛ فقد

(١) متفق عليه واللفظ للبخارى فى الحج بَاب الْحَلْقِ وَالتَّقْصِيرِ عِنْدَ الْإِحْلَالِ ٢/٦١٦ برقم ١٦٤٠
(٢) عمدة القارى ١٠/٦٤ بتصرف

قيل له صلى الله عليه وسلم فى التقديم والتأخير بين الذبح والحلق والرمى فقال: " افْعَلْ ولا حَرَجَ"(١) .

وقوله تعالى (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) أمر بالوفاء بالنذور عامة، ودل ذِكْرُهُ فى آى الحج على مزيد العناية بالوفاء بالنذور فى الحج خاصة، فمن نذر طوافا أو ذبحا أو قربة ما فى الحج وجب عليه الوفاء ؛ والوفاء بالنذر مأمور به فى جميع الأوقات وهو فى الحج ألزم وأوجب، ونظيره فيما ساق القرآن فى آى الحج أن الفسوق منهى عنه في كل وقت والنهى عنه فى الحج ألزم وأوجب، فمساق الأمر بالوفاء بالنذور هنا كمساق النهى عن الفسوق فى الحج فى قوله تعالى (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ) [البقرة ١٩٧] .

ومن بلاغة النظم الشريف أنه لم يعطف النذور على التفث، فلم يقل: ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَنُذُورَهُمْ، مع أن من نذر طوافا أو هديا أو نحو ذلك لزمه قضاؤه فى حجه كما يقضى تفثه وجميع مناسكه، وفى التعبير بقوله (وَلْيُوفُوا) حث لهم على الوفاء بالتصريح به لأنه من المحامد والمكارم التى يوصف بها كرام الناس ويحرصون عليها ويجتهدون فى نيلها وإن بذلوا النفس والنفيس، كما أن فى التعبير بـ (وَلْيُوفُوا) أمرا بأداء النذور، لا على أىِّ وجه، بل على الوجه الأكمل والأوفى ؛ حتى لا يتعجلوا فى أدائها أو ينقصوا، فمن أوجب على نفسه نذرا لله تعالى فليتق الله فى أدائه على أكمل وجه وأمثل صورة وأهدى سبيل حتى يوصف بأنه " وَفَّى " ؛ مستحضرا أنه يقدمه لربه ويرفعه لمولاه ويتقرب به لسيده جل فى علاه ؛ ولهذا شرف الله تعالى عباده وأثنى عليهم بالوفاء بالنذر فقال جل جلاله (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ)[الإنسان ٧] ولم يقل: يؤدون النذر .

وأضيفت النذور إلى الضمير العائد على الحجيج (نُذُورَهُمْ) كما أضيف التفث إلى الضمير العائد عليهم فى قوله (تَفَثَهُمْ)، فهم الذين أوجبوا النذور على أنفسهم كما أوجبوا الحج عليها حين عقدوا العزم عليه، ولا يخفى ما فى الإضافة فى (تَفَثَهُمْ) و(نُذُورَهُمْ) من تآلف وحسن تناسق، إذا انضم إليه اتحاد صيغة الفعلين (لْيَقْضُوا – وَلْيُوفُوا) ازداد حسنا وتناسقا .

وجمع النذور، ولم يقل: وليوفوا بالنذر، بصيغة الإفراد على شاكلة قوله (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ) [الإنسان ٧] لما فى صيغة الجمع من دلالة بالمنطوق على الوفاء بالنذور كلها على سبيل العموم، حتى لا يتعلل الحاج لعدم وفائه ببعضها بما يجد من المشقة والإجهاد فيتخفف من الوفاء ولو بنذر واحد، أما دلالة التعريف بـ " أل " على العموم فى قوله (يُوفُونَ

(١) ينظر أضواء البيان ٨٧/١ والحديث رواه البخارى فى الحج بَاب الْفُتْيَا على الدَّابَّةِ عِنْدَ الْجَمْرَةِ ٦١٨/٢ بررقم ١٦٥٠

بِالنَّذْرِ) أى يوفون بكل نذر – فهى دلالة بالمفهوم مناسبة للإخبار بما كان يفعله الأبرار فى الدنيا بعدما أكرمهم الله بدخول الجنة وشربوا من كأس كان مزاجها كافورا، فليس هناك مَظِنَّة للتخفف من الوفاء ببعض النذور ٠

وتقديم الأمر بالوفاء بالنذور على الأمر بالطواف بالبيت العتيق فى قوله (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) يحتمل معنيين: الأول: إذا كان المراد بالطواف طواف الإفاضة – على ما ذهب إليه جُلُّ أهل التأويل – فيكون فى تقديم الوفاء بالنذور على الأمر بطواف الإفاضة مزيد عناية واهتمام بالوفاء بالنذور وأنه لا يقل فى الأهمية والعناية عن طواف الإفاضة وهو طواف الركن٠ والثانى: إذا كان المراد بالطواف طواف الوداع على ما ذهب إليه بعضهم ؛ فتقديم الأمر بالوفاء بالنذور عليه جارٍ على الأصل ؛ لأن آخر ما يفعله الحاج هو طواف الوداع، فيقضى كل المناسك والتطوع والنذور قبله، ويجعل آخر عهده بالبيت طواف الوداع لقوله ﷺ (لَا يَنْفِرَنَّ أَحَدٌ حتى يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ) [(١)]٠

وقوله (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) معطوف على (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ)، وبين قضاء التفث والطواف بالبيت العتيق – طواف الإفاضة – مناسبة على كلا التأويلين السابقين في قضاء التفث، فإن كان المراد به إزالة الوسخ والدرن وحلق الشعر وقص الأظفار، فطواف الإفاضة مناسب له لأن به تمام التحلل والخروج من عهدة الإحرام، فبقضاء التفث يكون التحلل الأصغر، وبطواف الإفاضة يكون التحلل الأكبر، وإن كان المراد بقضاء التفث قضاء مناسك الحج كلها، فذكرُ طواف الإفاضة بعده من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية بطواف الإفاضة لأنه طواف الركن، كما أنه من أعظم مشاهد الحج وأحفلها وأكثرها أثرا فى النفوس لما يكون من توافد الحجيج على الطواف فى أوقات متقاربة، فيمتلىء بهم المطاف ويرى الناظر هذا المشهد ببصره وبصيرته، يرى هذا الزحام الذى ينخرط الحاج في وسطه، يرى رؤوسا تتحرك، وقلوبا تتضرع، وعبرات تسيل فى تراحم وتلاحم، ورفق وخشية، وطواف الإفاضة أقرب المشاهد شبها بالإفاضة من عرفات وهى أعظم مشاهد الحج، وشهود طواف الإفاضة بهذا المعنى من أعظم منافع الحج التى يشهدها وفد الله تعالى ؛ ولذا حسُن موقع الأمر به بعد قوله (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) ٠ ومن لطائف القرآن الكريم أنه ذكر الإفاضة من عرفات فى سورة البقرة، ثم ذكر طواف الإفاضة فى سورة الحج ؛ فاختار لكل منهما المقام الأنسب له ٠

وصيغة التفعُّل فى (وَلْيَطَّوَّفُوا) تحكى المشقة وبذل الجهد في الطواف، لا سيما عند الزحام فى طواف الإفاضة، ولم يذكر الفعل (يَطَّوَّف) فى آى الحج إلا بصيغة التفعُّل (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا)

(١) سنن أبى داود فى المناسك بَاب الْوَدَاعِ ٢/٢٠٨ برقم ٢٠٠٢

[البقرة ١٥٨]، كما تحكى صيغة التفعُّل ما يكون عليه الطائفون من تأهب وحشد لكل ما يرجون من الله تعالى فى مقامهم هذا فى الماضى والحاضر والمستقبل، لهم ولآبائهم ولأمهاتهم ولأبنائهم ولذرياتهم ولأخوانهم ولعشيرتهم ولبلادهم ولأمتهم فى الدنيا والآخرة، فى المعاش والمعاد، والإحاطة بهذا وغيره أمرٌ شاقٌّ جدا ؛ وفى الجوامع الكوامل من الدعاء عَوْنٌ وظهير، كقوله تعالى (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [البقرة ٢٠١]، وذكر البقاعى أن الإدغام فى هذه الصيغة فيه إشارة إلى الإخلاص بالإخفاء .(١)

وفى قوله (بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) أوثر التعبير بالبيت ووُصِفَ بالعتيق، ولم يقل: وليطوفوا بالكعبة ؛ أما التعبير بالبيت ففيه معنى السكن والراحة والهدوء ؛ لأن الله جل جلاله وصف البيوت عموما بالسكن فى قوله عز اسمه (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً) [النحل ٨٠]، والبيت العتيق سكن للناس يأمنون فيه، وهو أيضا سكن لأرواحهم وقلوبهم تجد فيه الرَّوْحَ والسكينة؛ فلا خوف إلا من الله، ولا طمع إلا فيه، ولا رجاء إلا منه، ولا تذلل إلا إليه، وفى التعبير بالبيت أيضا حثٌّ على الإكثار من العبادة فيه والاجتهاد فى الطاعة والاعتكاف ٠ ولو قيل: وليطوفوا بالكعبة، لما أفاد شيئا من ذلك ٠

وأما وصف البيت بالعتيق فهو وصف فريد ذُكِرَ فى هذه الآية وفى أختها بعدها (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) [الحج ٣٣]، وفيه أقوال:

منها: أن العتيق هو القديم ؛ لأنه أول بيت وُضِعَ للناس للعبادة، وفى هذا إشارة لمن تطوف به أنه فرد من أمم اطوَّفت به قبله، فلينكر ذاته وليهضم نفسه، ولا يتفاخر بطوافه وسعيه وحجه وعمرته، فكم طافت قبله أمم لا يحصيها إلا العليم الخبير ٠ وفى وصف البيت بالعتيق بهذا المعنى مناسبة لما بدأت به الآيات فى قوله تعالى (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) [الحج ٢٦] ؛ فالبيت كان موجودا قبل إبراهيم عليه السلام، وإنما هيأ الله تعالى له مكان البيت فرفع قواعده، فهو بيت عتيق قديم٠ومنها: أن العتيق هو المُعْتَقُ من الجبابرة ؛ فلم يَظْهَرْ عليه جبار قط؛ لأن له ربا يمنعه ٠ وحِفْظُه من الجبابرة وبقاؤه الدهرَ الطويل معظَّماً يؤتَى إليه من كل فج عميق – من الآيات الباهرة٠ ومنها: أنه سُمِّىَ بالعتيق لأنه لم يُمْلَك موضعُه قط ؛ إذ العتيق: المُحَرَّرُ غير المملوك للناس ؛ شُبِّهَ بالعبد العتيق فى أنه لا ملك لأحد عليه ؛ وفيه تعريض بالمشركين ؛ إذ كانوا يمنعون منه من يشاءون، حتى جعلوا بابه مرتفعا بدون دَرَجٍ لئلا يدخله إلا من شاءوا ؛ وعلى هذه الأقوال الثلاثة فعَتِيق فَعِيل بمعنى مفعول ٠ وقيل: سُمِّىَ بالعتيق لأنه مُعْتِقٌ رقاب المذنبين، فهو فَعِيل بمعنى فاعل،

(١) ينظر نظم الدرر ٥ / ١٤٩

ونسبة الإعتاق إليه مجاز؛ لأنه تعالى يعتق رقاب عباده بسبب الطواف به ٠ وقيل لأنه أُعْتِقَ من الغرق زمان الطوفان(١)

ومجيء فاصلة الآية (الْعَتِيقِ) مختومة بالقاف قبلها ياء ساكنة يمتد بها الصوت امتداده، ثم يستقر عند الوقف على رأس الآية بالسكون على حرف القلقلة " القاف "، كأنه يحكى قِدَمَ هذا البيت الضارب فى جذور الزمن وأعماق التاريخ، لا تؤثر فيه الأيام والدهور، ولا تزلزله الحوادث والخطوب، شامخا، عزيزا، حرا، لا يملكه أحد ولا يتسلط عليه جبار إلا قصمه الله تعالى ٠ الفاصلة تتآخى وتتعانق مع أخت لها قبلها تحكى حدثاً كان فى الزمن القديم ويمتد إلى قيام الساعة، من لَدُن أَذَّنَ الخليلُ عليه السلام فى الناس بالحج فأتوا رجالا وعلى كل ضامر (يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) [الحج ٢٧]، فبالله كيف صورت كلمة " عميق " بُعْدَ هذه الفجاج وغورها ؟ وكيف صورت قرينتها اللاحقة " العتيق " بُعْدَ الزمن وقدم هذا البيت ؟ وستأتى لهما قرينة ثالثة وهى " سحيق " فى قوله تعالى (حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) [الحج ٣١]، وأخرى رابعة فى قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) [الحج ٣٣]، وهذا التآخى والتوافق على بُعْد ما بين الفواصل ليس لحسنه غاية ٠

والطواف بالبيت يعنى الطواف من ورائه ليعم الحِجْرَ، ومتى نَقَصَ عن إكمال الدوران حوله أدنى جزء لم يصح لأنه لم يوقع مسمى الطواف، فالباء فى قوله " بالبيت " ليست للتبعيض(٢)٠

قوله تعالى (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ٠ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) [الحج ٣٠، ٣١] ٠

هاتان الآيتان متصلتان بما قبلهما اتصالا وثيقا، واستهلال الأولى باسم الإشارة للبعيد (ذلك) دالٌّ على تعظيم المشار إليه، وهو ما سبق ذكره من تبوئة مكان البيت لإبراهيم عليه السلام، وأذانه فى الناس بالحج، وأمره بتطهير البيت، ونهيه عن الشرك، ثم ما ذُكِرَ من منافع الحج، وما أجمل بعد ذلك من قضاء التفث والوفاء بالنذور والطواف بالبيت العتيق، فهذه الأمور كلها مهمة، عظيمة جليلة، تستوجب تأملها واستبصارها ٠ وقوله (وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ) رباطٌ متين، وعروة وُثْقَى فى اتصال الآية بما قبلها، كأنما قيل: إن منافع الحج ومناسكه السابقة صورٌ وأعراض ينبغى أن ينفذ الحاج منها إلى جوهرها

(١) ينظر تفسير الطبرى ١٧/ ١١٠ ، ١١١ والبحر المحيط ٧/ ٥٠٣ والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٥٠
(٢) ينظر نظم الدرر ٥/ ١٤٩

ولُبِّها، وهو " تعظيم حرمات الله "، هكذا على سبيل العموم، فإذا أيقظ الحج ضمير المؤمن، وجعل للوازع الدينى سلطانا عليه، لا يتحرك ولا يسكن إلا فى ظلال الدين: يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويرعى حقوقه وواجباته وآدابه، إذا فعل الحج فى المؤمن ذلك فقد سعد بحجه وفاز وأفلح وأنجح، أما إذا أدى المناسك دون أن تحرك رُوْحَه، أو توقظ ضميره، أو تبعثه من رقدة الذل، وترفعه عن وهاد المعاصى، حتى خرج من مناسكه كما دخل، لا يعظم لله حرمة، ولا يقف عند حدود حلاله وحرامه، فإنه خرج من الحج دون أن يقطف ثمرته، أو يصل إلى جوهره ولُبّه، ولا عاصم إلا الله ..

ومن دقائق البيان القرآنى أنه لم يقل: ومن يعظم حرمات الحج ؛ حتى لا يكون تعظيم الحاج للحرمات مقصورا على مناسك الحج من الطواف والسعى والوقوف بعرفات والنحر والحلق وغيرها، بل يشمل جميع حرمات الله تعالى، فى حجه وبعد حجه، فى حِلِّه وتَرْحَاله .

ثم خصت الآية من تلك الحرمات التى هى أولى بالتعظيم أمرين، الأول: تناول ما أحل الله تعالى من الأنعام واجتناب ما حرم منها (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) . والثانى: اجتناب الشرك بالله تعالى واجتناب قول الزور (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) . ولعل تخصيص هذين الأمرين لأنهما يشملان نفع الحاج لنفسه ونفعه لغيره، وأعظم ما يكون من نفعه لنفسه تطيهر روحه وسلامة عقيدته من رجس الشرك إلى نور التوحيد والإيمان، ونفعه لغيره بما ينحر من الهدى فيطعم البائس الفقير والقانع والمعتر، وهما أفضل العمل فى الحج لما جاء فى حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ: أىُّ العمل أفضل ؟ قال: " العَجُّ والثَّجُّ " . قال أبو عبيد: العَجُّ رفع الصوت بالتلبية، والثَّجُّ نحر البُدْنِ ليَثُجَّ الدَّمُ من المَنْحَر) [1]، وفى رفع الصوت بالتلبية إعلان التوحيد " لبيك لا شريك لك لبيك"، ولعل الحديث الشريف ناظر إلى تخصيص الأمرين بالذكر فى الآية الكريمة .

ولكلا الأمرين أصل يرجع إليه فى الآيات السابقة، فقوله (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) وما تبعه من تشبيه المشرك بمن خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق، يرجع إلى أصله وجذره الأول فى قوله جل جلاله لخليله صلوات الله وسلامه عليه (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً) [الحج ٢٦] فهذا امتداد لذاك، وتوحيد الله تعالى رأس الأمر كله، والشرك بالله أكبر الكبائر . وقوله (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) وما تبعه بعد ذلك من تعظيم شعائر الله عند نحر البُدْن فى قوله (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ. لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ

(١) المستدرك كتاب المناسك ١/ ٦٢٠ برقم ١٦٥٥ وقال الحاكم " صحيح الإسناد ولم يخرجاه "

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) [الحج٣٢، ٣٣] إلى قوله (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) [الحج ٣٧]، يرجع إلى أصله وجذره الأول فى قوله جل جلاله (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) [الحج ٢٨]، وهذا نمط من التناسب يملأ النفس روعة وجلالا، وإن استهل بكلمة " ذلك " وهى عَلَمٌ فيما اصطلح عليه أهل هذا الفن باسم " أسلوب الاقتضاب " ؛ فإن براعة الذكر الحكيم جعلت عَلَمَ الاقتضاب والانفصال مفتاح التناسب والاتصال، وقالت لحُسْنِ التخلُّص: إنه ليس ثمة تَخَلُّصٌ حتى يوصف بالحُسْن!! بل النظم كله نسج واحد، وشيء واحد، لم يخرج من غرض إلى غرض، ومن فن من القول إلى فن، فأين منه ما اشْتُهِرَ فى بابه من قول زهير وقد تقدم له وصف هرم بالكرم والشجاعة ثم اقتضب فوصفه بالبلاغة فقال:

هَذا، وَلَيسَ كَمَن يَعيا بِخُطَّتِهِ وَسطَ النَدِيِّ إِذا ما ناطِقٌ نَطَقا

وأين نبع الشعر فى عقول نوابغ الشعراء من البحار المحيطة التى لو كانت مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ؟!!!

والحرمات جمع حُرُمَة – بضمتين – وهى ما يجب احترامه، والاحترام: اعتبار الشيء ذا حَرَم ؛ فلا يحوم حوله، كناية عن عدم الدخول فيه ٠ والضمير (فَهُوَ) عائد إلى التعظيم المفهوم

من قوله (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ) أى فتعظيمه خير له، أى يثاب عليه يوم القيامة[1]٠

ولا يخفى ما فى الضمير (فَهُوَ) من فخامة وإيجاز أغنى عن التكرار إذا قيل: ومن يعظم حرمات الله فتعظيمه خير له ٠ وله نظائر فى الذكر الحكيم، منها قوله تعالى (فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ) [البقرة ١٨٤] أى فتطوعه خير له، وقوله (فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ) [المائدة ٤٥] أى فتصدُّقُه كفارةٌ له ٠

ويلاحظ فى قوله (فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ) التقييد بالظرف " عند " المضاف إلى "ربه"، وفيه تعظيم لهذا الخير بأنه مذخور له عند ربه يناله منه جل جلاله، وما كان عنده سبحانه فهو مضمون محقق لا يضيع ؛ لأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا، ومن سعادة العبد وعزه وشرفه أن يكون أجره على الله وثوابه عنده، ولم تقيد بهذا القيد آية الصيام (فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة ١٨٤] لم يقل: فهو خير له عند ربه ؛ لأن الحديث الشريف تكفل ببيان ذلك، ففى الحديث (كُلُّ

(١) ينظر الكشاف ٣ / ١٢ وروح المعانى ١٠/ ٢١٩ والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٥٢ ، ٢٥٣

عَمَلِ بن آدَمَ له إلاَّ الصِّيَامَ ؛ فإنه لى ؛ وأنا أَجْزِى بِهِ) [1]، قصر جزاء الصوم على كونه من الله وحده بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى فى قوله (وأنا أجزى به)، فتكفلت السنة ببيان أن جزاء الصوم مقصور على الله جل جلاله، ونص القرآن الكريم على أن ثواب من يعظم حرمات الله كائنٌ (عِندَ رَبِّهِ) ؛ حتى لا ينتظر المعظِّمُ حرماتِ الله من الناس جزاء ولا شكورا ؛ فيكون مخلصا لربه، بارئا من الرياء، سالما من حب السمعة والظهور، متوجها بقصده وكليته إلى الله جل جلاله ٠

ومن دقائق النظم الإظهار في موضع الإضمار، فلم يقل: ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عنده، بل ذكر الاسم الظاهر (رَبِّهِ) فى موضع الضمير لمزيد الاعتناء والتشريف [2]، كما نوع النظم العبارة عن الاسم الجليل فآثر التعبير باسم الجلالة (الله) فى قوله (وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ) لتربية المهابة والجلال ؛ لأن من يعظم حرمات الله يستحضر فى نفسه مهابة الله وجلاله وعظمته والخوف منه ؛ فناسبه التعبير بالألوهية، وآثر التعبير بـ (رَبِّهِ) فى قوله (فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ) لما فيه من معنى التربية والرحمة المشعرين بإجزال الثواب بلا حساب، وهذا مناسب لتنكير لفظ (خَيْر) الدال على عموم الخير وسعته ٠

قوله تعالى (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) يدعو إلى تناول ما أحل الله من الأنعام واجتناب ما حرم الله منها، وهذا أول الأمرين اللذين خصهما السياق من تعظيم حرمات الله، والثانى: اجتناب الشرك بالله فى قوله (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) وما تبعه من تشبيه المشرك بمن خر من السماء ٠٠ ولعل تقديم اجتناب ما حرم الله من الأنعام على اجتناب الشرك بالله، مع أن الشرك بالله تعالى أكبر الكبائر – لعل هذا التقديم دعا إليه ما يوجبه السياق من طول الحديث عن اجتناب الشرك بالله وتشبيه الأوثان بالرجس، واجتناب قول الزور، والشرك بالله أكبر صور الزور ؛ لأنه تزوير لأصل العقيدة، وتشبيه المشرك بمن خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق، فلما كان اجتناب الشرك يتبعه الحديث عن ذلك كله، أُخِّرَ عن اجتناب ما حرم الله من الأنعام ؛ لأنه لا يستغرق إلا جملة واحدة قصيرة، ليتفرغ السياق إلى بسط ما ذُكِرَ من اجتناب الشرك بتشبيهاته ومعانيه ٠

كان المشركون يحلون بعض ما حرم الله تعالى من الأنعام كالميتة والموقوذة والدم، ويحرمون بعض ما أحل الله تعالى منها كتحريمهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى، فنص قوله تعالى (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) على أن من تعظيم حرمات الله تحليل ما أحل من الأنعام وتحريم ما حرم، وأن الأنعام كلها أحلها الله تعالى إلا ما يتلى عليكم تحريمه فى آية المائدة فى قوله (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ) [المائدة ٣]

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (مسند أبى هريرة رضى الله عنه) ٢/٢٧٣ برقم ٧٦٧٩
(٢) ينظر روح المعانى ١٠/ ٢١٩

الآية، ويحتمل أن تكون هذه الجملة احتراسا لدفع ما قد يتوهم من أن الإحرام حَرَّم الأنعام كما حَرَّم الصيد، فجاء قوله تعالى (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) دفعا لهذا التوهم ببيان أن الإحرام لم يؤثر فى حل الأنعام إلا ما يتلى عليهم تحريمه فى آية المائدة [1].

وفى قوله تعالى (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) إيجاز بحذف مضاف، والتقدير: وأحل لكم تناول الأنعام وأكلها ؛ لأن ذات الأنعام لا توصف بحل ولا حرمة، والمراد
بالأنعام الأزواج الثمانية . وأكثر المفسرين على أن الاستثناء المراد به ما ذُكِر فى آية المائدة وإن اشتملت على ما ليس من الأنعام كالخنزير والاستقسام بالأزلام، قالوا: والتعبير بالمضارع (يُتْلَى) لا يراد به الاستقبال لسبق تلاوة آية التحريم، فهو لاستحضار الصورة الماضية [2]

والرجس: القَذَر، شُبِّهَتِ الأوثان به لأنها رجس معنوى، فمن اعتقد ألوهيتها كان كمن علق القَذَر والخَبَث والنجس بجسده، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) [التوبة ٢٨] أى لقذر باطنهم، ومنه تسمية الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسا على طريق التشبيه.

وهذا التشبيه فى غاية التنفير من الشرك وعبادة غير الله تعالى ؛ لأن العقيدة محلها القلب، فقلب المؤمن يعمره النور والضياء والطهر ؛ لأن الإيمان كذلك، وقلب المشرك يملؤه القذر ؛ لأن الشرك كذلك، فهو أصل الخَبَث ورأس القذر كله ؛ ولذا كان الإيمان بالله تعالى وتوحيده رأس الأمر فى عقيدة المؤمن، وكان الشرك سببا لفساد كل عمل ؛ لأن الشرك محبط له، وإن كان من أعمال الخير والبر .

ومن حسن صياغة التشبيه أن جعل المشبه به أول عناصر الصورة، فلم تكن الصياغة: فاجتنبوا الأوثان فإنها رجس أو كالرجس، بل جعل المشبه به فى صدر الصورة وأُنُفِها (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ) ؛ لأن الرجس لا يحبه أحد ولا يقبله ولا يقترب منه ؛ فهو حقيق بأن ينفر منه السامع من أول وهلة، بمجرد النطق به ؛ لأنه رجس ؛ والنفوس السليمة أشد ما تكون بُعدا عنه، ونفورا واشمئزازا ؛ فلما جاء المشبه مؤخرا ومسبوقا بـ (مِنْ) البيانية التى أغنت عن الإضافة، فلم يقل: رجس الأوثان، كما قال فى آية أخرى (وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ) [الأنفال ١١] أى وسوسته التى هى رجز أى عذاب –كان لهذا الترتيب والتركيب أثرٌ عجيب فى تمييز الأوثان والدلالة على أنها رجس واضح لا يلتبس ولا يخفى

(١) ينظر تفسير الطبرى ١١٢/١٧ ، والكشاف ٣/ ١٢ ، ونظم الدرر ٥ / ١٤٩
(٢) ينظر الكشاف ٣/ ١٢ وروح المعانى ١٠/ ٢١٩

وتعريف (الرِّجْس) بـ " أل " التى للجنس وبناء التركيب على الإبهام ؛ لأن الرجس عام مبهم يطلق على كل قذر وخبث، ثم توضيحه وتبيينه بقوله (مِنَ الْأَوْثَانِ)، وإيقاع الاجتناب على الأوثان والمراد اجتناب عبادتها، فى هذا كله ما لا يخفى من المبالغة فى التنفير عن عبادتها(١).

قوله تعالى (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) معطوف على (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)، وهذا العطف جعل المعطوف فى رتبة المعطوف عليه فى عِظَمِ الإثم والجُرْم ؛حيث قَرَنَ قولَ الزور بالشرك.

والزور من الازورار وهو الانحراف، واختلف فى تأويله هنا، فقيل: هو قول المشركين هذا حلال وهذا حرام وما أشبهه من افترائهم . وقيل: هو شهادة الزور ؛ لما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه (صلى صَلَاةَ الصُّبْحِ، فلما انْصَرَفَ قام قَائِمًا، فقال: عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ، ثَلَاثَ مِرَارٍ، ثُمَّ قَرَأَ " فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ من الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غير مُشْرِكِينَ بِهِ ") (٢). وقيل: الكذب والبهتان . وقيل: قول أهل الجاهلية فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك (٣) .

والكلمة تفيض على جارتها من ظلالها، فلما اقترن قول الزور بالإشراك بالله جعله الرسول صلى الله عليه وسلم عِدْلاً له ونظيرا ومساويا فى الجُرْم، وهذا نمط من العطف جرى عليه البيان النبوى، ففى الحديث من دعائه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول (اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ . فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَيَعْتَدِلانِ ؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم: " نَعَمْ ") (٤).

والمناسبة التى سوغت عطف قول الزور على الإشراك أن قول الزور انحراف عن الحق إلى الباطل، والإشراك بالله تعالى أعلى صور التزوير والانحراف عن الحق ؛ ولذا قالوا إن قول الزور تعميم بعد تخصيص ؛ فإن عبادة الأوثان رأس الزور ؛ وليس هناك خيانة كتزييف الحقائق وقلبها وتزويرها ؛ والإشراك بالله تعالى عماده التزوير وإعطاء العبادة لغير مستحقها، (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان ١٣]، وشهادة الزور تقلب الحق وتغيره وتنسبه إلى غير أهله، فيأخذ من لا يستحق ما لا يستحق، ويبقى من يستحق محروما ؛ وهذا ظلم

(١) ينظر روح المعانى ١٠ / ٢١٩
(٢) سنن أبى داود بَاب فى شَهَادَةِ الزُّورِ ٣٠٥/٣ برقم ٣٥٩٩
(٣) ينظر الكشاف ٣/ ١٢
(٤) صحيح ابن حبان : ذكر البيان بأن الشىء قد يشتبه بالشىء إذا أشبهه فى بعض الأحوال وإن كان مباينا له فى الحقيقة ٣٠٢/٣ برقم ١٠٢٦

بيِّن ٠ قال الزمخشرى (جمع الشرك وقول الزور فى قِرَانٍ واحد ؛ وذلك أن الشرك من باب الزور ؛ لأن المشرك زاعم أنّ الوثن تحق له العبادة، فكأنه قال فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور، واجتنبوا قول الزور كله ؛ لا تقربوا شيئاً منه لتماديه في القبح والسماجة، وما ظنك بشيءٍ من قَبِيلِه عبادةُ الأوثان ؟) [١]

وأكد النظم معادلة قول الزور للشرك بتكرار العامل (وَاجْتَنِبُوا) فصار من عطف جملة على جملة، لا من عطف المفردات ؛ ولذا لم يقل: فاجتنبوا الرجس من الأوثان وقول الزور ؛ اعتناء باجتناب قول الزور [٢] ٠

والجملة صورت قول الزور فى صورة شيء محسوس كالخبث والقذر وأمرت المؤمن باجتنابه، أى يكون بعيدا عنه، فيكون فى جنب وقول الزور فى جنب آخر، لا يقترب منه، فضلا عن أن يعتقده أو يقوله ويجرى به لسانه ٠٠ الزور صار محسوسا واضحا، وهكذا ينبغى أن يكون الفرق بين الإيمان والكفر والحق والباطل والصدق والكذب ظاهرا مكشوفا لا يلتبس على المؤمن، ولا نجد هذا المعنى إذا قيل: فلا تقولوا الزور ٠

وقوله (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) حالان مؤكِّدان من الضمير فى (فَاجْتَنِبُوا) أى كونوا حال اجتنابكم الرجس من الأوثان واجتنابكم قول الزور مخلصين لله تعالى غير مشركين به٠ والحَنَف – بالحاء المهملة – مَيْلٌ عن الضلال إلى الاستقامة ٠

وقال (حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) ولم يقل: مخلصين لله ؛ لمناسبة ذكر الرجس من الأوثان وقول الزور لما فيهما من جَنَف أى مَيْلٌ عن الحق إلى الباطل ؛ فجاء قوله (حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) للميل عن الباطل إلى الحق، فهما ضدان، والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ، ولو قيل: مخلصين لله، لما أفاد هذا التضاد الذى يصور التناقض بين أهل الإيمان وأهل الكفر، فأهل الإيمان لفطرهم السليمة وما قذف الله فى قلوبهم من نور الهداية يميلون عن الباطل إلى الحق، وأهل الكفر قومٌ طَبَعَ الله على قلوبهم فهم دائما يميلون عن الحق الأبلج إلى الباطل اللَّجْلَج٠ ويا بُعْدَ ما بينهما !

ولمح البقاعى مناسبة لطيفة بين كلمتى " الزُّورِ " و " حُنَفَاء " ؛ (لاجتماعهما فى مطلق المَيْل، إلا أن الزور تدور مادته على القوة والوعورة، والحَنَفُ على الرقة والسهوله، فكان ذو الزور معرضاً عن الدليل بما فيه من الكثافة، والحنيف مقبلاً على الدليل بما له من اللطافة) [٣]

(١) الكشاف ٣/ ١٢ وينظر روح المعانى ١٠ / ٢٢٠
(٢) ينظر البحر المحيط ٧ / ٥٠٥ وروح المعانى ١٠ / ٢٢٠
(٣) نظم الدرر ٥/ ١٥٠

وقوله (غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) يؤكد معنى " حُنَفَاء " ويبينه ؛ لأن الحنيف هو المخلص لله تعالى الذى لا يشرك به أحدا، وقد اجتمعت الصفتان فى وصف الخليل صلوات الله وسلامه عليه فى قوله تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [النحل١٢٠] فاجتماع الحالين فى وصف المؤمنين حَثٌّ لهم وثناءٌ عليهم بأنهم على ملة أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام(١).

قوله تعالى (وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) امتداد للنهى عن الشرك والتنفير منه، شبهه أولا بالرجس، ثم شبه المشرك هنا بتشبيهٍ من فرائد القرآن التى لم تُذْكَرْ إلا فى هذا الموضع، قال الزمخشرى (يجوز فى هذا التشبيه أن يكون من المركَّب والمُفَرَّق ؛ فإن كان تشبيهاً مركباً، فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير، فتفرق مُزَعَاً فى حواصلها، أو عصفت به الريحُ حتى هوت به فى بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان فى عُلُوِّه بالسماء، والذى ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوّح به فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المُتْلِفَة)(٢) .

ولابن المنيَّر تعليق لطيف على تحليل الزمخشرى، قال (أما على تقدير أن يكون مفرقا فيحتاج تأويل المشرك بالهاوى من السماء إلى التنبيه على أحد أمرين: إما أن يكون المراد به رِدَّتَه، فإنه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده، وإما أن يكون الإشراك أصليا فيكون قد عَدَّ تَمَكُّنَ المشرك من الإيمان ومن العُلْوِيَّة ثم عُدُولَه عنه اختيارا بمنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)[البقرة ٢٥٧]
فعَدَّهُم مُخْرَجِين من النور وما دخلوه قط، ولكن كانوا متمكنين منه. وفى تقرير تشبيه الأفكار المتوزِّعة للكافر بالطير المتخطِّفة، وفى تشبيه تطويح الشيطان بالهُوِىِّ مع الريح فى مكان سحيق نَظَرٌ؛ لأن الأمرين ذكرا فى سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين، فإذا جَعَلَ الأَوَّلَ مَثَلاً لاختلاف الأهواء والأفكار، والثانى مثلا لنزغ الشيطان فقد جَعَلَهما شيئا واحدا، لأن تَوَزُّعَ الأفكار واختلافَ الأهواء مضاف إلى نزغ الشيطان ؛ فلا يتحقق التقسيم المقصود . والذى يظهر فى تقرير التشبيهين غير ذلك، فنقول: لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما:

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٧/ ٢٥٤
(٢) الكشاف ٣/ ١٢ ، ١٣

الأول المتذبذب والمتمادى على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة، فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته فلا يستولى طائر على مُزْعَة منه إلا انتهبها منه آخر، وذلك حال المذبذب، لايلوح له خيال إلا اتبعه ونزل عما كان عليه .

والثانى مشرك مصمم على معتقد باطل، لو نُشِرّ بالمناشير لم يَكِعَّ ولم يرجع، لا سبيل إلى تشكيكه، ولا مطمع فى نقله عما هو عليه، فهو فرح مبتهج بضلالته، فهذا مشبه فى إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقر فيه، ونظير تشبيهه بالاستقرار فى الوادى السحيق الذى هو أبعد الأخباء عن السماء وَصْفُ ضلاله بالبُعد فى قوله " أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ" [إبراهيم ٣]" قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً "[النساء ١٦٧]، أى صمموا على ضلالهم فبَعُدَ رجوعُهم إلى الحق . فهذا تحقيق القسمين، والله أعلم) (١) .

وهذا تحرير دقيق نَوَّرَ بأمثاله ابنُ المُنَيَّر كثيرا من صحائف الكشاف، ولا يخفى أن هذا التشبيه وإن جاز تفريق أجزائه ومقابلة كل جزء من هيئة المشبه بما يناسبه من هيئة المشبه به إلا أن اعتبار التركيب فيه أولى ؛ لأنه يعطى صورة كلية متكاملة لذلك الذى كان بإيمانه أو بفطرته السليمة التى فطره الله عليها فى سماء عالية، فلما أشرك خر من تلك السماء، والفاء فى (فَتَخْطَفُهُ) تزيد أجزاء الصورة تماسكا وتعانقا بما تفيده من أن تخطف الطير إياه كان على الترتيب والتعقيب بلا مهلة فور سقوطه من السماء، وأن الريح كانت كأنها تنتظره لتتلقفه وتهوى به في مكان سحيق. نعم، تشبيه الإيمان في علوه بالسماء تشبيهٌ رائعٌ، وهو لؤلؤة منفردة، وهكذا الأجزاء كلها، ولكن ضَمُّ هذه الأجزاء والعناصر المكوِّنة للصورة كضَمِّ حبات اللؤلؤ المتناثرة ونظمها فى سلك لتكون عقدا نفيسا يملأ العين جمالا .

التشبيه يدل على أن المؤمن في أمان لأنه محاط مصون فى سماء عالية، لا تتناوشه الأفكار الضالة والفلسفات المُضِلَّة ؛ فهو فى عصمة وثبات ويقين، لا يتطرق إليه الشك، ولا تعرف الشُّبَهُ إليه سبيلا .. والكافر فى ضياع لما هو فيه من ضلال وشَكٍّ وحَيْرَة، تتوزعه الأفكار الضالة والفلسفات المضلة مُزَعاً مُزَعاً، ويا بُعْدَ ما بينهما !! المؤمن عزيز آمن فى سماء عالية، والكافر صار مُزَعاً فى حواصل الطير الكواسر، أو هالكاً مُلْقًى فى مكان سحيق من الأرض . المؤمن مطمئن آمن، والكافر خائف قلق مشتت ضائع .

(١) الانتصاف لابن المنير مطبوع مع الكشاف ٣/ ١٣ بتصرف . وَكَعَّ عن الشيء يَكَعُّ ويَكِعُّ – بالفتح والكسر ، والكسر أجود – كَعًّا وكُعُوعًا وكَعَاعَةً إذا ارتدَّ عنه هيبةً وجُبنا (ينظر لسان العرب "كعع ")

التشبيه يقول إن هلاك هذا المشرك محقق ؛ لأنه خر من السماء فتخطفه كواسر الطير فتقطعه فى حواصلها مُزَعاً قبل أن يسقط على الأرض، فإن لم تخطفه الطير هوت به الريح فى مكان سحيق من الأرض ؛ فهو هالك لا محالة لأنه خر من السماء، ولكن لهلاكه صورتان:

الصورة الأولى: أنه كان في السماء وهى أعلى الأشياء وأكثرها بُعْدا، فلييس شيء يدانيها في العلو، ولكن: كيف صعد إلى السماء ؟ الإيمان هو الذى رفعه أو فطرته السليمة، ثم نرجع إلى الرجل فإذا هو مرتد أو مشرك فليس أهلا للبقاء فى تلك السماء ؛ فلْيَخِرَّ منها ٠٠ صورة رجل يَخِرُّ من السماء صورة غريبة لم نعهدها، بل إننا – مع تقدم العلم – لم نصعد إلا إلى سطح القمر أو الكواكب الدانية القريبة، نعم، رأينا رجلا يسقط من الطائرة، ورأينا كيف تتقاذفه الريح، ورأينا رجلا يخر من شاهقات المبانى وقُلَل الجبال ٠٠ أما رجلٌ يَخِرُّ من السماء!! من السماء !! فهذا غريب جدا ٠٠ ثم تتمادى الصورة فى الغرابة فنجد كواسر الطير تتخطف ذلك الرجل وهو فى الجو قبل أن يسقط على الأرض، وهذا يدل على أن الطير كانت كثيرة بحيث تتخطف لحمه وعظامه وأعضاءه وجسده كله فلا تُبْقِى منه شيئا البتة، ولا إلف لنا بهذه الصورة الغريبة ٠ إن القرآن حكى عن صاحب يوسف عليه السلام فى السجن أنه سيصلب وتأكل الطير من رأسه، ولكن الصَّلْب صورة ثابتة أما الخُرُورُ من السماء فصورة علوية متحركة حركة سريعة جدا، وكيف تكون سرعة الطير المحيط بهذا الجسم حال سقوطه من السماء حتى يلاحق هذا الجسم ؟ وغير بعيد أن يكون هذا الطير أسرابا مصفوفة مرصوصة، كل كاسر ينال من لحم الساقط وعظمه ما ينال، فما يخلص من سرب إلا إلى سرب، وهكذا حتى ينفد لحمُه وعظمُه ومفاصله ولا يبقى منه شيء ٠ وقُدِّمَتْ صورةُ تَخَطُّفِ الطير إياه على هُوِىِّ الريح به لأنها أغربهما ؛ فلم ترها عين إلى الآن، وأقصى ما نجده فى شعر العرب مما يقرب منها انهم يجعلون الطير عصائب فى ركاب الممدوح لتأكل من جثث عدوه، كما فى قول النابغة:

إذا ما غَدا بالجَيْش حلَّقَ فوقَهُ عصائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدى بعصائبِ

وقول أبى نواس:

تَتأيّا الطَّيْرُ غُدْوَتَهُ ثِقَةً بالشِّبعِ من جَزرِهْ

أما أن تأكل الطير رجلا خر من السماء فتتخطفه وهو فى الجو وينتهب بعضُها لحمَه من بعض حتى لا تَبْقَى منه باقية، فهذا شيء فوق أفق خيال البشر وطوقهم ٠

والصورة الثانية: أنه خر من السماء، وفيها ما فى الأولى من غرابة فى هذا الجزء من الصورة، ولكنه سَلِمَ فلم تتخطفه الطير، إلا أن الريح أهلكته ؛ لأنها هوت به فى مكان سحيق، كناية عن هلاكه، ووَصْفُ المكان بالسحيق للتأكيد على تحقق هلاكه ٠ ولم يقل:

عميق، لنفهم من سحيق معنى أنها سحقته فصار مسحوقا مقطعا كالسحيق من البُرِّ ونحوه، لم تَبْقَ فيه قطعة متماسكة .

وثمة مناسبة بين هذا التشبيه الذى لم يرد إلا فى سورة الحج وبين صورة أخرى لم ترد أيضا إلا فيها، صورة رجل مشرك يتعلق بحبل فى السماء ليصعد إليها ؛ فيقطع ذلك الوحى الذى ينزل من السماء على قلب المعصوم صلى الله عليه وسلم ؛ ليطفىء بذلك غيظه، هذه الصورة لم ترد إلا فى سورة الحج، قال تعالى (مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) [الحج ١٥]، فهذا كافر متعلق بحبل إلى السماء ليصعد فيطفىء نور الله، والآخر كافر أو مرتد يسقط من السماء – بدون حبل – ليلقى مصيره المحتوم فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق

إن اتباع المؤمن للحق وتمسكه بدينه يرفعه إلى السماء، وانسلاخه من الدين وترديه إلى هاوية الباطل يضعه ويخلده إلى الأرض، وهذا قريب جدا من نبأ الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها فأخلد إلى الأرض ولو تمسك بإيمانه لرفعه الله، قال تعالى (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الأعراف ١٧٥، ١٧٦].

ومن دقائق النظم إظهار الاسم الجليل " الله " فى قوله (وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ) فى موضع الإضمار، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك به فكأنما خر من السماء. . وفى إظهار اسم الجلالة من التشنيع على المشركين ما لا تجده فى التعبير بالضمير ؛ فهم أشركوا بالله المستحق للألوهية المستحوذ على الكمال والجلال..

ومن الدقائق التعبير بالمضارع فى (فَتَخْطَفُهُ) و (تَهْوِى) لاستحضار تلك الصورة العجيبة؛ ليراها المخاطب رأى عين ؛ فيزداد منها عجبا وتعجيبا [(١)].

* * *

قوله تعالى (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِى الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)[الحج ٣٢ – ٣٥].

(١) ينظر روح المعانى ١٠ / ٢٢١

افتتحت الآيات الثلاث بجملة (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) وهى نظيرة أختها السابقة (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ)، وهذا مفتاح ظاهر للتناسب، تناسب فى الاستهلال بـ " ذلك "، وتناسب فى طريقة التركيب، وتناسب فى افتتاح الاستهلال بتعظيم حرمات الله وتعظيم شعائر الله، وتناسب فى إتْبَاعِ كل تعظيم منهما بنعمة: فتعظيم حرمات الله أُتْبِعَ بقوله (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ) وهى نعمة، وأُتْبِعَ تعظيم شعائر الله بقوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) والانتفاع بالهدى حتى يُنْحَرَ بمكة المكرمة نعمة، وفى هذا دلالة على أن من يعظم حرمات الله وشعائره يغدق الله عليه النعم

و(ذَلِكَ) اسم إشارة للبعيد يدل على تعظيم المشار إليه، وهو ما سبق من تعظيم حرمات الله واجتناب ما حرم من الأنعام واجتناب الشرك وقول الزور ٠ وتكرار اسم الإشارة فى رأس الجملة دون الاكتفاء بعطفها على قوله (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ) يؤذن باستقلال هذه الجملة وأنها ذات اهتمام خاص بها وتمييز منفرد لها عما سبقها، والواو العاطفة بعد اسم الإشارة عَلَمٌ على هذا الاستقلال الذى آذن به اسم الإشارة ووطَّأَ له ٠

والجمهور على أن (شَعَائِرَ) جمع شعيرة والمراد بها ما يُنْحَرُ فى مكة من الهَدْى، سُمِّيَت شعيرة لأنها تُشْعَرُ بحديدة أى تُجْرَحُ بها فَتَدْمَى ويُزَالُ ما على الجُرْح من الشعر ؛ فيكون ذلك شعارا أى علامة مميزة على أنها سيقت للهدى، وتعظيمها بأن يختار أعظمها وأحسنها وأسمنها وأغلاها، وأيد الجمهور ذلك بما رُوِىَ عنه صلى الله عليه وسلم من أنه أَهْدَى مائةَ بَدَنَةٍ فيها جَمَلٌ لأبى جهل فى أنفه بُرَّةٌ مِن ذَهَب، وأن عمر – رضى الله عنه – أهدى نَجِيبَةً طُلِبَتْ منه بثلاثمائة دينار، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بُدْناً، فنهاه عن ذلك، وقال: " بل اهْدِها "، وأن ابن عمر – رضى الله عنهما – كان يسوق البُدْنَ مُجَلَّلَةً بالقُبَاطِىّ ؛ فيتصدقُ بلحومها وبجِلَالِها [1] ٠

وعلى ما ذهب إليه الجمهور يكون قوله تعالى (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ) وما بعده تفصيلا لما أجمل فى قوله تعالى (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) ٠

وعطف (وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ) على قوله (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ) بناء على رأى الجمهور من عطف الخاص على العام للعناية بتعظيم ما يُنْحَرُ من الهَدْى [2]

(١) ينظر البحر المحيط ٧/ ٥٠٦ وروح المعانى ١٠/ ٢٢٢ ٠ والقُبَاطِىُّ ثيابُ كَتَّانٍ بيض رِقاق تُعْمَلُ بمصر وهي منسوبة إلى القِبْط على غير قياس ، واحدها قُبْطِيَّة (اللسان : قبط)

(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٧ / ٢٥٦

ويحتمل أن يراد بـ (شَعَائِرَ اللَّهِ) مناسك الحج كلها، سُمِّيَتْ شعائر لأنها معالم الحج التى أَشْعَرَ الله تعالى بها قلوب الناس، من الكعبة والصفا والمروة وعرفات والمشعر الحرام ونحوها، وعلى هذا فهى من عطف الخاص على العام أيضا [١] .

ويحتمل أن يراد بها شرائع الإسلام كلها ؛ فتكون كقوله (وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ) إذا أريد بحرمات الله كل ما شرعه الله تعالى، وعطف عليه تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير فى الذات ؛ فلما وُصِفَت شرائع الإسلام هنا بأنها من شعائر الله، ووُصِفَت هناك بأنها " حرمات الله " ساغ العطف لإبراز هذا الوصف الجديد . ولو قيل: ذلك ومن يعظم هَدْىَ الحج، أو مناسك الحج، أو شرائع الإسلام، لانصرف البيان إلى معنى واحد لا يتجاوزه .

قوله تعالى (فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) يعنى فإن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، و(مِن) ابتدائية والمعنى فإن تعظيمها مبتدأٌ من تقوى القلوب وناشئٌ منها، أو للتبعيض بمعنى فإن تعظيمها بعض أفعال المتقين [٢]، وكلا المعنيين وجيه، وأحبهما إلى الثانى لأن للتقوى أفعالا أخرى وأبوابا لا تحصى كثرة، منها الصدق والعدل والأمانة والبر وحسن الخلق

وعلى كثرة ما ذُكِرَت التقوى فى القرآن الكريم فإنها لم تُضَف إلى القلوب إلا فى هذه الآية، فهذه الإضافة من فرائد القرآن الكريم، والتقوى محلُّها القلب، فذِكْرُ القلوب بعدها مما يسترعى الانتباه ويلفت النظر ؛ ولذا وقف المفسرون عند هذه الإضافة، وذكروا أنها (للإشارة إلى أن التقوى قسمان: تقوى القلوب، والمراد بها التقوى الحقيقية الصادقة التى يتصف بها المؤمن الصادق . وتقوى الأعضاء، والمراد بها التقوى الصورية الكاذبة التى يتصف بها المنافق الذى كثيرا ما تخشع أعضاؤه، وقلبه ساهٍ لاهٍ)[٣]، وفى الإضافة دلالة على أن التقوى محلها القلب ؛ ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم (التَّقْوَى هَهُنا) وأشار إلى صدره [٤] .

وفى تركيب الجملة شىء آخر يثير الانتباه ؛ لأنها افتتحت بـ (مَنْ) وهى للعاقل، والمراد المؤمن المعظم شعائر الله، فكان الظاهر أن يأتى الخبر عنه بوصفه هو بالتقوى، كأن يقال: ومن يعظم شعائر الله فهو من المتقين، إلا أن النظم لم يخبر عنه بأنه من المتقين، بل جعل ذلك مُضَمَّناً مطوياً فى الإخبار عن تعظيم شعائر الله بأنها من تقوى القلوب، ليكون بناء العبارة قائما على الإخبار عن تعظيم شعائر الله، ويأتى وَصْفُ من يعظمها بالتقوى تبعا له، وهذا هو النمط الذى بُنِىَ عليه التركيب فى أختها السابقة (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ

(١) ينظر السابق
(٢) ينظر الكشاف ١٣/٣ وروح المعانى ١٠ / ٢٢٣
(٣) روح المعانى ١٠/ ٢٢٥
(٤) ينظر البحر المحيط ٧ / ٥٠٦ والحديث فى سنن البيهقى الكبرى ، جماع أبواب القذف باب ما جاء فى تحريم القذف ٢٤٩/٨ برقم ١٦٠٩٥

خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ) أى فتَعْظِيمُها خيرٌ له عند ربه، فالخبر عن تعظيم حرمات الله لا عمن يعظمها، ويجيىء الإخبار عمن يعظمها بأن له خيراً عند ربه تبعا لذلك ومُضَمَّناً فيه .. تعظيم حرمات الله وتعظيم شعائر الله هو الأصل الذى عليه المدار ويمتلىء به البيان ويتفرغ له قصدا وعمدا ؛ لتمتلىء به قلوب المؤمنين ؛ فيكون حاضرا فيها لا يغيب، حيا، فاعلا، يأخذها إلى كل خير، وينأى بها عن كل شر . وهذا التركيب جعل الزمخشرى يقول إن في الكلام حذفا كثيرا وتقديرات كثيرة ؛ إذ التقدير على ما ذكر: فإن تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب [1]

وفى التركيب حملٌ على المعنى ؛ لأن (مَنْ) لفظها مفرد ومعناها الجمع، فلما جمع القلوب راعى معنى (مَنْ)، ولو حمل على اللفظ لقيل: فإنها من تقوى قلبه، وأوثر الحمل على المعنى لأن تعظيم شعائر الله فعل من أفعال المتقين التى يشترك فيها كل تَقِيٍّ وَرِعٍ، وفيه حثٌّ على أن تمتلىء قلوب المتقين جميعا بتعظيم شعائر الله ؛ لأنه من الله تعالى بمكان . وأوثر الحمل على اللفظ لا على المعنى فى قوله (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ)، ولو حمل على المعنى لقيل: فهو خير لهم عند ربهم ؛ لمناسبة الإخبار عن ثواب من يعظم حرمات الله، وفى الثواب والعقاب يقف كل إنسان فردا واحدا ينتظر جزاءه (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)[المدثر ٣٨]؛ لأجل هذا كان الحمل على اللفظ فيها أنسب .

قوله تعالى (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) الضمير فى (فِيهَا) يعود إلى (شَعَائِرَ اللَّهِ) بمعنى الهَدْى المسوق إلى البيت العتيق من الإبل والبقر والمعز والغنم، فمن فسر (شَعَائِرَ اللَّهِ) بالهدى فعود الضمير عليها ظاهر، ومن فسرها بمناسك الحج أو شرائع الدين، فإعادة الضمير على نوع من شرائع الدين وهو ما ينحر من الهدى فيه نوع من " الاستخدام " [2]، والاستخدام أن يُرَادَ بلفظٍ له معنيان أحدُهما، ثم بضميره معناه الآخر، كقول الشاعر يصف قومه بالغلبة لمن عداهم:

إذا نَزَلَ السماءُ بأرضِ قومٍ رَعَيناهُ وإن كانوا غِضَابا

فالسماء لفظ له معنيان مجازيان: الغيث، والنبت، فأراد بلفظه أحد المعنيين وهو الغيث، وأراد بضميره فى قوله (رَعَيناهُ) النبت ؛ لأن الغيث لا يُرْعَى، يقول: إن قومه يفعلون فى بلاد الأقوام ما شاءوا من الرعى، ولا يعترض عليهم أحد، ولا يقدر على منعهم أحد، بل يرعون الكلأ بأرض غيرهم من غير رضاهم [3] . ومن بلاغة الاستخدام الإيجاز ؛ إذ الضمير فى " فيها " أخصر من الاسم الظاهر إذا قيل: لكم فى الهدايا، كما أن في هذا الأسلوب إيقاظا

(١) ينظر الكشاف ٣/١٣
(٢) ينظر نظم الدرر ٥/ ١٥١
(٣) ينظر الإيضاح ومعه شروح التلخيص ٤/ ٣٢٧ ، ٣٢٨

وإثارة ؛ لأن أول ما يتبادر إلى الذهن من الضمير فى " فيها " أنه يرجع إلى (شَعَائِرَ اللَّهِ) بمعنى شرائع الدين أو مناسك الحج، ولكن المخاطب يفاجأ بأن الضمير قد اسْتُخْدِم فى معنى آخر وهو الهدايا المسوقة إلى الكعبة، وفى هذا إثارة للفكر، فيكون المعنى أوقع فى النفس وأقوى أثرا[١]

والمراد بالمنافع ما ينتفع به من الهدى من نَسْلِه ولبنه وركوب ظهره ونحو ذلك مما لا يُتْلِفُه[٢]، وتنكير منافع للعموم، وفيه رد العجز على الصدر، فقوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ) يرجع إلى قوله (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)، وتنكير " مَنَافِعَ " أولا وآخرا، وذكر الحجيج بالضمير فى (لَهُمْ) و (لَكُمْ) يربط البيان ويقوى تناسبه ٠

وتقديم الخبر الجار والمجرور " لكم " فى قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ) على المبتدأ يفيد القصر، أى أن هذه المنافع التى تنتفعون بها من نسل الهدى ولبنه وصوفه وركوبه إلخ خاص بكم أيها المؤمنون، وفيه تعريضٌ بالمشركين ؛ (لأنهم كانوا إذا قَلَّدُوا الهَدْىَ وأَشْعَروه حظروا الانتفاع به من ركوبه والحمل عليه وشرب لبنه وغير ذلك) [٣]، وفى تقديمه أيضا حرص على العناية والاهتمام بذكر ما يخالف هَدْىَ أهل الشرك فى حجهم، حتى يكون تَمَيُّزُ هذه الأمة فى مناسكها ظاهرا، وقد مرت نظائر كثيرة لما جاء فى نظم آى الحج والعمرة مما يدل على مخالفة هَدْىَ أهل الشرك فى حجهم٠ وفى الحديث (عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَأَى رَجُلًا يَسُوقُ بَدَنَةً، فقال: " ارْكَبْهَا " ٠ فقال: إِنَّهَا بَدَنَةٌ؟ فقال: " ارْكَبْهَا " ٠ قال: إِنَّهَا بَدَنَةٌ ؟ قال: " ارْكَبْهَا ؛ وَيْلَكَ !! "، فى الثَّالِثَةِ أو فى الثَّانِيَةِ)[٤] ٠

وفى قوله تعالى (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) [الحج ٣٦] نجد جملة (لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) أختا لجملة (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ) فى بنائها على التقديم والتأخير والتنكير، وهى أُخْتٌ لها فى معناها ؛ لأن الجملتين فيهما إباحة الانتفاع بالهدى عامة، كما فى الأولى، وبالبُدْنِ خاصة كما فى الثانية، حتى يُنْحَرَ بمكة المكرمة ٠

والأقرب تفسير كلمة " خير" بمنافع الدنيا، لتقدُّم ذكرها فى الآية على ذكر اسم الله عليها عند نحرها، وعطف ذلك بعضه على بعض بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب، فلفظ " خير " هنا يفسره لفظ " منافع " فى قوله (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)، والأجل المسمى فى هذه يفسره قوله (فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا)، فالأجل المسمى هو نَحْرُها وسقوط جنوبها على الأرض، فللمؤممن

(١) ينظر علم البديع د / بسيونى فيود ص ١٨٨ ط مؤسسة المختار ط ثالثة ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م
(٢) ينظر روح المعانى ١٠ / ٢٢٦
(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ٢٥٨
(٤) صحيح البخارى كتاب الحج بَاب رُكُوبِ الْبُدْنِ ٢/ ٦٠٦ برقم ١٦٠٤

الانتفاع بالهدى حتى ينحر بمكة، وهكذا تتنادى الآيتان ويفسر بعضهما بعضا، وتمد الأولى يدا إلى الثانية، وتمد الثانية يدا إلى الأولى، وهذا نمط من البيان عَلِيٌّ ؛ ولذا فأقرب الأقوال عندى في تأويل قوله تعالى (إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) أن المراد به نحر الهدى، وهو ما ذهب إليه الإمام الشافعى رحمه الله تعالى؛ فهذا أحرى بالقبول لما سبق، ولأن الأجل المسمى ورد بمعنى الموت وانقضاء الأجل فى قوله تعالى:

(وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) [هود ٣] ٠

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) [الزمر ٤٢] ٠

(يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) [نوح ٤] ٠

أما تأويل الأجل المسمى بوقت أن يسميها المُهْدِى ويوجبَها هدياً، وحينئذ ليس له شيء من منافعها، أو تأويله بوقت أن تُشْعَرَ وتُجْرَحَ بعلامة فى جسمها فليس له الانتفاع بشيء منها[١]– هذه التأويلات لا تتفق مع دلالة الآيات على نحر الهدى، والأولى تفسير بعضها ببعض كما سبق ٠

وفى قوله (إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) إشارة إلى أن هذا الهدى كالعاريَّة عندهم ينتفعون به مع المحافظة عليه وإصلاحه بكل ما ينفعه ويقويه وينميه، وصيانته عن كل ما يؤذيه ويضره ويضعفه ويتلفه، فهو عندهم كالدَّين المؤجَّل الذى يحين أداؤه إلى صاحبه عند نحره بمكة المكرمة ٠

قوله تعالى (ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) المَحِلُّ – بفتح الميم وكسر الحاء – مصدر ميمى من حَلَّ يَحِلُّ إذا بلغ المكان واستقر فيه، وهو كناية عن نهاية أمرها، كما يقال: بلغ الغاية، ونهاية أمرها النحر، وفى المصدر الميمى معنى الوجوب، تقول: حَلَّ الدَّيْنُ يَحِلُّ، إذا وجب٠ ويجوز أن يكون مَحِلّ اسم زمان، والمعنى وقت حلول نحرها عند البيت العتيق [٢] ٠ و(ثُمَّ) للتراخى فى الوقت أو فى الرُّتْبَة ؛ لأن منافع الهدى الدنيوية من أخذ نسله وصوفه وشرب لبنه وركوب ظهره ونحو ذلك ينتفع بها إلى بلوغ وقت نحره فى مكة المكرمة، فهذا التراخى الزمنى، أما التراخى الرُّتْبِى فمعناه أن هذه المنافع السابقة لما كانت دنيوية، وكانت منفعة نحر الهدى دينية، كانت المنفعة الدينية أعظم المنافع وأبعدها شوطا فى النفع، وإنما يُعْبَدُ الله بالمنافع الدينية، قال تعالى (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ) [الأنفال ٦٧] [٣]

(١) ينظر روح المعانى ١٠ / ٢٢٦
(٢) ينظر روح المعانى ١٠ / ٢٢٦ والتحرير والتنوير ١٧ / ٢٥٨
(٣) ينظر البحر المحيط ٧/ ٥٠٧ وروح المعانى ١٠ / ٢٢٦ والتحرير والتنوير ١٧ / ٢٥٨

والمراد بالبيت العتيق ما يليه بعلاقة المجاورة، كما قال تعالى (هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ) [المائدة ٩٥] ؛ أى بالغاً ما يليها ويجاورها ؛ لأن الهدى لا ينحر بالكعبة، بل فيما يليها من فجاج مكة ومِنَى، وفى الحديث (مِنًى كُلُّهَا مَنْحَرٌ، وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ طَرِيقٌ وَمَنْحَرٌ)(١)، وتخصيص البيت العتيق والكعبة بالذكر ؛ لأن البيت أشرف الحرم، وهو المقصود بالهَدْى تعظيما له (٢)

قوله تعالى (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [الحج ٣٤، ٣٥].

الآيتان تتصلان بما قبلهما اتصالا وثيقا ؛ فلما ذكرت الآيات السابقة أن منسك المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم هو الهَدْى يسوقونه، ولهم فيه منافع إلى أجل مسمى ثم محله إلى البيت العتيق، جاء قوله تعالى (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً) ليبين أن المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا بِدْعاً من الأمم قبلهم فى ذلك ؛ لأن الله تعالى جعل إراقة الدماء منسكا تتقرب به إليه كل أمة مؤمنة، قال ابن كثير (لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعا فى جميع الملل) (٣) فوزان هذا النسق كوزان قوله تعالى فى آية الصيام (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة ١٨٣] ۝

والاستهلال بقوله (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً) فى غاية التناسب والتلاؤم لما ختمت به الآية السابقة فى قوله تعالى (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) ؛ فإيثار وصف البيت بالعتيق أى القديم الذى حجت إليه الأمم ؛ هذا الوصف يوطىء لما سيُذْكَرُ بَعْدُ من أن الله تعالى جعل لكل أمة مؤمنة حجت البيت العتيق منسكا فى حجهم ؛ إذ الحج شريعة ماضية فى الأمم؛ ولذا لم يوصف البيت بالحرام ولم يقل: ثم محلها إلى الكعبة،كما قال فى آية المائدة (هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ) [المائدة ٩٥]، ولو قيل ذلك لضاعت هذه التوطئة ۝

وإذا كان نحر الأنعام لذكر اسم الله عليها منسكَ هذه الأمة كما كان منسك الأمم قبلها، فإن الآية دلت على هذا بنظم يبعث على التأمل، فابتدأت بتقديم الجار والمجرور على متعلقه فى (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً) للدلالة على الاختصاص أى أن هذا المنسك لكل الأمم لا تنفرد به أمة مؤمنة عن أمة مؤمنة ۝ ثم تنكير (مَنسَكاً) للدلالة على الوحدة لا على

(١) سنن ابن ماجه فى الحج بَاب الذَّبْحِ ١٠١٣/٢ برقم ٣٠٤٨
(٢) ينظر البحر المحيط ٧/ ٥٠٧ وروح المعانى ١٠ / ٢٢٦ ونظم الدرر ٥ / ١٥١
(٣) تفسير ابن كثير ١٣١/٣

التنوع، أى منسكا واحدا . وقوله (لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) دال على وَحْدَةِ هذا المنسك، وهو نحر الأنعام ؛ لأن ذكر اسم الله عليها يكون عند نحرها تقربا إليه جل جلاله . وجعلت الآية وَحْدَةَ المنسك سبيلا إلى التوحيد، قال الطاهر (أى إذا كان قد جعل لكم منسكا واحدا فقد نبهكم بذلك أنه إله واحد، ولو كانت آلهة كثيرة لكانت شرائعها مختلفة) [(١)] .

والنُّسُكُ: العبادة، والناسك: العابد، واخْتُصَّ بأعمال الحج، والمناسك مواقف النسك وأعمالها، والنَّسِيكَةُ مختصة بالذبيحة، والمقصود هنا ما يذبح من الأنعام[(٢)] .

وتكررت جملة (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً) فى سورة الحج مرتين، وجاء بعد هذه قوله تعالى (لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ)، وجاء بعد الثانية (هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ) [الحج ٦٧]، فقيدت الأولى بالجملة المفتتحة بلام التعليل لبيان أن علة هذا المنسك هى ذكر اسم الله تعالى عند نحر ما رزقهم من بهيمة الأنعام ؛ فليس الغرض من الذبح المفاخرة بالكرم ونحر النَّعَم، بل ذكر اسم الله جل جلاله هو الغاية والتقرب إليه سبحانه وابتغاء مرضاته، ولم تقيد الآية الثانية بذلك، بل أكدت اتباع كل أمة لمنسكها قطعا للجدال وحسما للخلاف فى أمر الذبائح؛ قال تعالى (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ) . وعلل الزمخشرى حذف الواو العاطفة من الثانية وذكرها فى الأولى بأن الأولى وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآى الواردة فى أمر النسائك ؛ فعُطِفَتْ على أخواتها، وأما الثانية فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفا [(٣)] .

ولم يقيد ذكر الله فى هذه الآية بكونه فى أيام معلومات، مع أن هذا القيد مذكور فى نظيرتها السابقة وهى (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) [الحج ٢٨]، والمراد بها العشر من ذى الحجة أو أيام النحر ؛ ولعل ذكر هذا القيد فيها لكونها خاصة بمناسك هذه الأمة ؛ ولذا ذُكِرَ بعدها قضاء التفث والوفاء بالنذور وطواف الإفاضة، ولم تذكر الأيام المعلومات فى الثانية لأن الغرض فيها متوجه إلى بيان وحدة المنسك الذى جعله الله لجميع الأمم لا بيان الأيام التى يكون فيها ذلك .

وبالجمع بين الآيتين:

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٦٠
(٢) ينظر المفردات للراغب : نسك
(٣) ينظر الكشاف ٣/ ٢١

– (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) [الحج ٢٨] ٠

– (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) [الحج ٣٤] ٠

يمكن ملاحظة أمرين:

الأمر الأول: التصريح فيهما بأن بهيمة الأنعام التى يذكرون اسم الله عليها رِزْقٌ من الله تعالى لهم ؛ ولذا صُرِّحَ فى الآيتين بقوله (عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) ولم يقل: على بهيمة الأنعام لاستحضار أنها رِزْقٌ من الله تعالى ونعمةٌ تستوجب الشكر، والإشارة إلى أنكم حين تتقربون إليه بنحرها فإنكم تتقربون إليه بشىء من عطائه ورزقه ٠

والأمر الثانى: اشتراك الآيتين فى الالتفات من الغيبة فى قوله (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) إلى الخطاب فى قوله (فَكُلُوا مِنْهَا) وقوله (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)، وفى الالتفات إلى خطاب هذه الأمة تنبيه على غايتين جليلتين من نحر الأنعام فى الحج، ركز السياق فى كل آية منهما على غاية ؛ ففى الآية الأولى التفت إلى خطابهم بالأكل من الأنعام وإطعام البائس الفقير للتركيز على ما فى الحج من التكافل بإطعام الفقراء من لحومها، ومخالفة هَدْيِ أهل الشرك بالأكل منها وعدم التكبُّر عن ذلك بإلقائها كلها للفقراء ٠ وفى الآية الثانية التفت إلى خطابهم لبيان أن هذا المنسك الواحد عند جميع الأمم هدفه واحد وهو توحيد الله جل جلاله وإخلاص الدين له (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا) ٠ التوحيد وإشاعة التكافل والتراحم بين أفراد الأمة غايتان جليلتان التفت إليهما السياق للإيقاظ وإثارة الانتباه ٠ وفى الالتفات إشارة إلى أن المؤمن بعد الشكر على النعمة يكون أهلا لخطاب المُنْعِمِ جل جلاله وإقباله عليه ٠

وفى قوله تعالى (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) أخبر عن المبتدأ (إلهُكُم) بـ (إلهٌ) مع أنه يمكن أن يقال: فإلهكم واحد ؛ لأن كلمة واحد التى وقعت صفة لـ (إله) هى مناط الحكم لدلالتها على الوحدانية، والتمس المفسرون أسرارا لذكر كلمة (إله)، منها: أنه لو قيل: فإلهكم واحد ؛ لربما قال متعنتهم: إن المراد اقتصارنا على واحد مما نعبده ٠ ومنها: الدلالة على أن الإله الحق لا ينقسم بوجه من الوجوه ؛ فهو سبحانه واحد فى ذاته كما أنه واحد فى إلهيته[1] ٠

وجملة (فَلَهُ أَسْلِمُوا) مرتبة على جملة (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) بالفاء الدالة على التعليل ؛ فعلة الأمر بالإسلام لله وحده أنه إله واحد ؛ فليس إلا الله وحده هو المستحق لأن يسلم إليه العبد وينقاد ويذعن ويخلص له العبادة، فالوحدانية التى حَرَصَ السياق على إظهارها وتأكيدها هى أساس العبادة والانقياد ؛ فموقع جملة (فَلَهُ أَسْلِمُوا) موقع النتيجة بعد

(١) ينظر نظم الدرر ٥/ ١٥٢ وروح المعانى ١٠/ ٢٢٩

المقدمات الصحيحة التى تدعو إليها وتهتف بها ٠ الإسلام له جل جلاله هو الغاية التى تطمح إليها الشرائع، وهو رأس الأمر فى الحج والعمرة لما فيهما من أعمال قد لا يعرف لها العبد علة ولا مغزى كالوقوف بعرفات والمبيت بمنى ومزدلفة ورمى الجمار والحلق والتقصير وكون الطواف سبعة أشواط، وهذا كله عِمَادُه التسليم والانقياد لأمر الله تعالى ؛ إيمانا ويقينا وحبا وشوقا، وإن لم يعلم العبد العلل والأسرار ؛ فإن الانقياد لله تعالى والتسليم له غاية تقررها هذه الفريضة فى نفس المؤمن ؛ وبالانقياد لله تعالى والتسليم والإخلاص يسعد المؤمن فى معاشه ومعاده ٠

وتقديم الجار والمجرور (له) على الفعل (أَسْلِمُوا) يفيد القصر، أى: لا تسلموا إلا له تعالى ؛ ونظير هذا التقديم ما جاء فى دعائه صلى الله عليه وسلم (اللهم لكَ أَسْلَمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ) (١)، وعِزُّ المؤمن أن لاينقاد إلا للواحد الأحد، وهذا درس جليل ينبغى أن يتقرر فى نفس الحاج والمعتمر ليجدد به إيمانه ويقينه، ويجدد حياته وسلوكه ٠

قوله تعالى (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ٠ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [الحج ٣٤، ٣٥].

هذه الجملة الطويلة جعلها الطاهر بن عاشور – رحمه الله – اعتراضا بين سوق المنن؛ لأن قوله تعالى (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ) [الحج ٣٦] معطوف على جملة (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً) (٢)، وهذا تَتَبُّعٌ واعٍ لحركة السياق وتناسب الجمل والمعانى، كان للطاهر ابن عاشور فيه فتوح، ولكن ما سر هذا الاعتراض ؟ لاشك فى أن قَطْعَ السياق المتصل الذى يتحدث عن نحر الأنعام فى الحج تقربا إلى ذى الجلال، قطعه بذكر المخبتين وصفاتهم أمرٌ لافت من شأنه أن يستوقف النظر ويوجب مزيدا من التأمل فى هذا المعنى الذى قُطِعَ السياق من أجله ؛ لأنه لا يحتمل التأخير ٠ ويمكن بيان الغرض من الاعتراض بأمرين:

١– أن نحر الأنعام كثيرا ما يكون مدعاة التفاخر والتعالى، فلطالما تمدَّح الأجواد وتفاخروا بنحرها لإطعام الضيف الطارق والفقير العانى والضعيف المحتاج، وتمدَّحوا بالدعوة الجَفَلَى التى تَعُمُّ الغنى والفقير ولا تَنْتَقِرُ الغنى دون الفقير، فقال طَرَفَة:

نَحنُ فى المَشتاةِ نَدعو الجَفَلى لا تَرى الآدِبَ فينا يَنتَقِر

(١) من حديث رواه البخارى فى التهجد بالليل ٤/ ٢٧٨ برقم ١٠٥٣
(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٧/ ٢٦٠ ، ٢٦١

ويفتخرآخر بنحر العُوذَ التى لا يمتعها بفصيلها وبأنه لايشترى ناقةً إلا قريبة الأجل لأنه ينحرها:

لا أُمْتِعُ العُوذَ بالفِصَالِ، ولا أَبْتَاعُ إلا قَرِيبَةَ الأَجَلِ

فنبه الاعتراضُ بذكر المخبتين المتواضعين على أن النحر وإراقة الدماء فى الحج ينبغى أن يتجرد عن التفاخر والتعالى ؛ لأن هذه صفات تنافى ما يحبه الله تعالى ؛ لأنه يحب المخبتين ولا يحب المتكبرين ٠

٢- أن الأمر بالإسلام لله تعالى فى قوله (فَلَهُ أَسْلِمُوا) يعنى الانقياد وعدم الكِبْر، فهو ينأى بالمؤمن الذى ذلَّ لربه وخشع وتَمَسْكَنَ عن أن يترفع ويتكبر على عباد الله، ويرى لنفسه عليهم شرفا وفخرا ؛ فالتواضع يناسب صفات الحاج، قال البقاعى: (لما كان الإسلامُ هو سهولة الانقياد من غير كبر ولا شماخة، وكان منشأ الطمأنينة والتواضع اللَّذَينِ هما أنسب لحال الحاج المتجردِ من المخيط، المكشوفِ الرأس، الطالبِ لوضع أوزاره، وتخفيف آصاره ؛ لستر عَواره – أقبل سبحانه وتعالى على الرأس من المأمورين، الحائز لما يمكن المخلوقين أن يصلوا إليه من رُتَبِ الكمال وخلال الجمال والجلال ؛ إشارة إلى أن لا يلحقه أحد فى ذلك فقال " وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ " أى المتواضعين المنكسرين) [١]٠

والمخبتون هم المتواضعون، (وأصل المُخْبِتِ مَنْ سَلَكَ الخَبْتَ، وهو المكان المنخفض، ضد المُصْعِدِ، ثم استعير للمتواضع، كأنه سلك نفسه فى الانخفاض، والمراد بهم هنا المؤمنون ؛ لأن التواضع من شيمهم، كما كان التكبر من سمات المشركين، قال تعالى "كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ "[غافر٣٥]) [٢]

واستعارة المخبت الذى يسلك المكان المنخفض المطمئن من الأرض للمتواضع استعارة تصريحية تبعية أخرجت المعقول فى صورة المحسوس، صورت المتواضع الذى خفض كبرياء نفسه وكبح جماح غروره وعُجْبِه، بأنه نزل من تلك الربوات العالية والمرتفعات الخطرة والقمم التى تهلك المُصْعِدَ إليها أو تَكُدُّه وتؤذيه، نزل إلى الوهاد السهلة المنخفضة المطمئنة من الأرض التى يَأْمَنُ سَالِكُها ولا يخشى الهبوط والانحدار ٠ إن المخبت قريب من الناس يكفكف دمعة المحزون ويعين الكَلَّ ويعطى المحروم وينصف المظلوم ويأخذ بيد الضعيف ٠

وفى صياغة الجملة عنايةٌ بخُلُقِ الإخبات، وهذا ظاهر فى التعبير بالبشارة فى قوله (وَبَشِّرِ) والبشرى إخبار بما يسر النفوس ويجلب لها السعادة والانشراح ٠ وإسناد فعل الأمر إلى ضمير المخاطب صلى الله عليه وسلم فيه مزيد تكريم وتشريف للمخبتين بأن تأتيهم

(١) نظم الدرر ١٥٢/٥ وينظر البحر المحيط ٧/ ٥٠٨
(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٦٠ ، ٢٦١ وينظر الكشاف ١٤/٣

البشرى منه صلى الله عليه وسلم ؛ ولذا لم تقل الآية: وأبشروا ٠ ولو قيل: فله أسلموا وأخبتوا ؛ لما وجدت هذه الفوائد الكامنة وراء تحويل الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ٠ والحاج حين يتخلق بخلق التواضع فإنه يتأسى به صلى الله عليه وسلم٠ وإذا كان التواضع مرغَّبا فيه فى غير الحج فإنه فى الحج أولى، واتصاف الحاج به أجدر وأنسب لحاله ٠

واسم الفاعل " الْمُخْبِتِينَ " يدل على الثبوت والدوام، أى أن التواضع صفة لازمة لهم لاتزول عنهم، فليسوا ممن يتواضعون حينا ويتكبرون حينا، بل التواضع ديدنهم وهِجِّيرَاهُم ٠

وحُذِفَ المبشَّرُ به، والتقدير: وبشر المخبتين بالرفعة فى الدنيا وبالجنة فى الآخرة، ونحوه، ومن نظائره فى حذف المبشَّر به قوله تعالى (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) [البقرة ١٥٥] (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) [البقرة٢٢٣، والتوبة ١١٢، ويونس ٨٧، والصف ١٣] (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) [الحج ٣٧]، ومن بلاغة هذا الحذف أن تذهب النفس فى تقدير المحذوف كل مذهب، فكل ما يُبَشَّرُ به أهل الإيمان والصبر والإخبات والإحسان من خير ونعيم فى الدنيا والآخرة فهو كائن فى هذه البشرى ٠

وذكرت الآية للمخبتين أربع صفات (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ،وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ، وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)، ولما كان رأس الأمر فى التواضع انكسار العبد لخالقه ورضاه بما يجريه عليه من الأقدار وعبادته إياه – قُدِّمَت الأوصاف الثلاثة وهى الوجل عند ذكر الله جل جلاله، والصبر على المصيبة، وإقامة الصلاة ٠ ولما كانت هذه الثلاثة يعود نفعها على الموصوف بها أتبعها الوصف الرابع الذى يعود نفعه على غيره وهو الإنفاق؛ لأن انكسار العبد لخالقه ينشأ عنه انكسارٌ ورقةٌ للخلق تجعله عطوفا عليهم رفيقا بهم فيعطيهم مما رزقه الله جل جلاله ؛ وبهذا تكون الأوصاف الأربعة جامعَة لما يجلبه التواضع من نَفْعٍ للمتواضع نفسِه ونَفْعٍ لغيره، وجامعة أيضا لاتصاف العبد بالتواضع مع الخالق ومع المخلوق ٠

ومن مناسبة الصفات الأربع لمقام الحج أن فى وجل القلوب عند ذكره تعالى إشراقا لأشعة الجلال عليها فتتحمل مشاق التكاليف ومؤونات النوائب والمصائب، كالأمراض والمحن والغربة عن الأوطان، ولا يخفى حسن موقع ذلك فى الحج ٠ولمَّا كان السفر مَظِنَّةَ التقصير فى إقامة الصلاة قال (وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ) أى وإن حصل لهم من المشاق فى السفر وأفعال الحج ما عسى أن يحصل ٠ ولمَّا كان ما يحصل فى الحج من زيادة النفقة ربما كان مُقْعِداً عنه، رَغَّبَ فيه بقوله (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) ؛ فهم يبذلون مما رزقناهم بالهدايا التى يغالون فى أثمانها وغير ذلك ؛ امتثالا لأمره، كالخَبْتِ المطمئن من الأرض الباذلِ لما يودعه الله تعالى فيه من الماء والمرعى، والصفات الأربع مظاهر للتواضع ؛

فليس المقصود مَنْ جمع تلك الصفات ؛ لأن بعض المؤمنين لا يجد ما ينفق، وإنما المقصود مَنْ لم يُخِلّ بواحدة منها عند إمكانها [1] .

وقُدّمَ وجل القلوب عند ذكره تعالى لأن الخوف من الجليل هو رأس الأمر فيهما لما يورث العبد من التذلل لله والانكسار لجلاله . والتواضع والتكبر أمران يقومان فى النفس ويَعْتَلِجَانِ فيها ؛ ولذا قُدِّمَ وجل القلب ؛ لأن القلب إذا صَلَحَ صَلَحَ الجسدُ كُلُّه، وإذا فَسَدَ فَسَدَ الجسدُ كُلُّه . وأُتْبِعَ وَجَلُ القلوب بالصبر على المصيبة لأنه أَدَلُّ على التسليم لقضاء الله تعالى وما يُجْرِى من الأقدار . وذُكِرت إقامة الصلاة عقب الصبر على المصيبة ؛ لأن الصبر والصلاة أكبر معين للعبد ؛ ولذا قُرِنَ بينهما فى قوله تعالى (وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ) [البقرة ٤٥] . وذُكِرَ الإنفاق عقب إقامة الصلاة لأن الصلاة عبادة بدنية والإنفاق عبادة مالية، ولذا كثُر اقترانهما فى الذكر الحكيم كما فى قوله تعالى (وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)[البقرة ٣] (وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)[التوبة ٧١]

قوله تعالى (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) أوثر التعبير باسم الموصول لأن جملة الصلة بعده يجب أن تكون معلومة للمخاطب، وهذا يعنى أن المخبتين معروفون ومشهورون بجملة الصلة التى تصف حال قلوبهم عند ذكر الله تعالى، وهى أنهم (إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) حتى صار ذلك لهم سمة يتميزون بها لرقة قلوبهم وخوفها من الجليل.

وبُنِىَ الفعل (ذُكِرَ) للمفعول للدلالة على أن وجل قلوبهم يكون عند ذكر الله جل جلاله بصرف النظر عن الذاكر: من هو ؟ فالعبرة بأنه جل جلاله ذُكِرَ ؛ فهذا باعثٌ حَثِيثٌ لوَجَلِ قلوبهم . وكما لم تحدد الجملة الذاكر من هو ليشمل كل ذاكر – فإنها أيضا لم تحدد الذكر: ما هو ؟ ليشمل كل ذكر من التسبيح والتحميد والتهليل وقراءة القرآن وغير ذلك .

والوَجَلُ: الخوف والقلق والاضطراب،وأُسْنِدَ إلى القلوب لأنها محلُّه وموضعه،كما أُسْنِدَ إليها الاطمئنان لأنها محلُّه وموضعه، قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد ٢٨]، وبين اطمئنان القلوب ووجلِها عند ذكر الله تعالى تضاد ؛ لأن القلوب تنتقل من حال الخوف والانزعاج إلى حال الأمن والطمأنينة والسكون ؛ ولهذا وُجِّهَ وَجَلُ القلوب عند ذكر الله بخوفها منه عند ذِكْرِ جلاله وعزة سلطانه وعقابه وعذابه وبطشه وانتقامه، ووُجِّهَ اطمئنانُها عند ذكره بما تجد من الرَّوْح والسكينة عند ذكر صفات جماله من العفو والرحمة والمغفرة والثواب ونحوها [2] .

(١) ينظر نظم الدرر ٥/ ١٥٢ ، ١٥٣ وروح المعانى ١٠/ ٢٢٩ ، ٢٣٠ والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٦١
(٢) ينظر الكشاف ١/ ١٤٢

قوله تعالى (وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ) عُطِفَتْ هذه الصفة وما بعدها بالواو للدلالة على أن المخبتين جامعون لهذه الصفات متحققون بها، وذكر البقاعى أنها جاءت بالعطف لا بالإِتْبَاعِ إيذانا بالرسوخ فى الأوصاف ٠ وإيثار اسم الفاعل " الصَّابِرِينَ " على الفعل للدلالة على أن الصبر على ما أصابهم صار عادتهم كائنا ما كان ٠ وهذه الصفة مناسبة للحج لما فيه من كثرة الخلطة الموجبة لكثرة الأنكاد، ولاسيما وقد كان أكثر المخالطين مشركين ؛ لأن السورة مكية[١]

والصبر على المصيبة يعنى الثبات وعدم الجزع، وهو بهذا المعنى مضاد لجزع القلوب وخوفها عند ذكر الله فى قوله (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)، فبين الصفتين طباق خَفِيٌّ دَلَّ على أن هؤلاء المخبتين يخافون ويجزعون إذا ذُكِرَ عقاب الله تعالى وبطشه وانتقامه، ولا يخافون ولا يجزعون عند النوازل والمصائب ؛ لأنهم لما خافوا الله جل جلاله أَمَّنَهُمُ وجعل فى قلوبهم اليقين الذى يُهَوِّنُ به عليهم مصائب الدنيا ٠

والاسم الموصول " ما " فى جملة (وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ) يفيد العموم، أى أنهم صابرون على كل ما أصابهم فى النفس والمال والولد ومشاق التكاليف والسفر والغربة عن الأهل والوطن، وغير ذلك، قال الرازى (يجب الصبر على ما كان من قِبَلِ الله تعالى،وأما ما يكون من قِبَلِ الظَّلَمَةِ فغيرُ واجب، بل يجب دَفْعُه على من يمكنه ذلك، ولو بالقتال)[٢] ٠

قوله تعالى (وَالْمُقِيمِى الصَّلَاةِ) الصلاة تنافى الكبر والشماخة لأنها قيام لله تعالى وركوع وسجود وتمسكُن وتضرع وأن يقول العبد يارب يارب، ويعفر وجهه فى التراب لخالقه، ويلقى جبهته وأنفه فى الأرض إعلاما بالخضوع والتذلل ؛ ولذا كان السجود أقرب أحوال العبد من ربه لأنه أعلى صور الخضوع والتواضع والانكسار ٠ والصلاة هى التى يَظْهَرُ أثرُها على المصلى فى سلوكه ؛ولذا جاء فى الحديث القدسى (إنى لا أَتَقَبَّلُ الصلاةَ إلا ممن تواضع بها لعظمتى، ولم يستطل بها على
خَلْقِى، ولم يَبِتْ مُصِرًّا على معصيتى، وقَطَعَ نهاره فى ذكرى، ورَحِمَ الأرملةَ والمسكينَ وابنَ السبيل، ورَحِمَ المصاب)[٣] ٠ وعبر بالوصف دون الفعل فى (وَالْمُقِيمِى الصَّلَاةِ) إشارة إلى أنه لا يقيمها مع المشاقِّ والشواغل التى تكون فى الحج إلا الأَرْسَخُ فى حُبِّها، فهم لِمَا تَمَكَّنَ من حبها فى قلوبهم والخوف من الغفلة عنها –كأنهم دائما فى صلاة[٤]

(١) ينظر نظم الدرر ١٥٢/٥
(٢) مفاتيح الغيب ١١/ ٢٧٦
(٣) مسند البزار (البحر الزخار) ، فى مسند ابن عباس رضى الله عنهما ١٦٩/٢ برقم ٤٨٢٣
(٤) ينظر نظم الدرر ١٥٣/٥ وروح المعانى ١٠/ ٢٢٩

وفى التعبير بـ (وَالْمُقِيمِى الصَّلَاةِ) معنى زائد لا يوجد فى قولنا: والمصلين، وهو الحرص على أدائها فى أوقاتها وإتمامها والإحسان فيها بالخشوع والخضوع، ونحو ذلك مما يدخل فى إقامتها على الوجه الأكمل ؛ فليس المراد وصف المتواضعين بأنهم يؤدون الصلاة على أىِّ وجه ٠

وحذفت نون الجمع من (وَالْمُقِيمِى الصَّلَاةِ) تخفيفا لأجل الإضافة، والأصل: والمقيمين، وفى الحذف دلالة على شدة قرب المخبتين من صلاتهم وأنها صارت كالجزء منهم ؛ لأن المضاف والمضاف إليه كالكلمة الواحدة ٠

والقيام فى اللغة هو الانتصاب، والإقامة جعل الشىء قائما منتصبا، وذكر الزمخشرى للتعبير مع الصلاة بلفظ الإقامة وما يشتق منه عدة معان مجازية، من أوجهها[1]:

١- تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زَيْغٌ فى فرائضها وسننها، شُبِّهَ ذلك بإقامة العود أى تسويته وإزالة اعوجاجه، ثم استعيرت الإقامة من تسوية الأجسام إلى تسوية المعانى كتعديل أركان الصلاة وحفظها ٠

٢- أنها من قامت السوق إذا نَفَقَتْ، وأقامها إذا جعلها نافقة رائجة، شُبِّهَتِ الصلاة إذا حوفظ عليها بالشىء النافق الرائج الذى تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المخلصون، ثم استعير المشبه به للمشبه، وإذا عُطِّلَتِ الصلاة وأضيعت كانت كالشىء الكاسد الذى لا يرغب فيه ٠

٣- أن يراد التجلد والتشمر لأدائها، وأن لا يكون فى مؤديها فتور عنها ولا تَوَانٍ، من قولهم: قام بالأمر، وقامت الحرب على ساقها، وفى ضده: قعد عن الأمر وتقاعد عنه، إذا تقاعس وتَثَبَّطَ ٠ وعبر عن هذا المعنى بالقيام لأن القيام يدل على الاعتناء بشأنه ويلزمه التجلد والتشمر، فأُطْلِقَ القيامُ على لازمه ٠

قوله تعالى (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) فيه دلالة على أن الحج باب واسع من أبواب الإنفاق ؛ ويُسَنُّ للحاج أن ينفق فى وجوه البر، وأن يختار من الهَدْىِ الذى يتقرب به لربه أسمنه وأحسنه وأغلاه٠ ومن لطيف التناسب أن تُخْتَمَ هذه الآية بذكر الإنفاق وتُفْتَتَحَ الآية التى بعدها بذكر "البُدْن "

التى ينحرها الحاج هديا وتقربا إلى الله جل جلاله فى قوله تعالى (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ)؛ إذ البُدْنُ أغلى الهدى وأحسنه وأسمنه ٠

وجعلت الآية الإنفاق من أوصاف المخبتين للدلالة على أن تواضع ذى الفضل والسَّعَة يَزِينُه ويرفعه أن يكون مقروناً بالبَذْلِ والإنفاق، فليس التواضع هَضْمَ النفس والبُعْد عن

(١) ينظر الكشاف وحاشية السيد الشريف عليه ١/ ١٢٩ ، ١٣٠

الكبر والشماخة فقط، بل ينبغى أن تمتد يَدُ المتواضع – إذا كان من أهل السَّعَة واليسار – بالعون والإنفاق والبذل والسخاء ٠

وفى التعبير بـ " مِنْ " التبعيضية فى قوله (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) صيانةٌ لهم وكفٌّ عن الإسراف والتبذير المنهى عنه [١] ٠ وفى " رَزَقْنَاهُمْ " دلالة على موضع النعمة المستوجبة للشكر ؛ ولذا لم يقل: ومن أموالهم ينفقون، فما ينفقه العبد إنما هو من رزق الله ولو شاء جل وعلا لَمَنَعَهُ وقَطَعَه، فله الحمد والشكر على الإنعام والإمداد ٠ وفى آيات أخرى عبر القرآن الكريم بالمال أو الأموال فى موضع الرزق لحكمةٍ يقتضيها المقام، كما فى قوله تعالى (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ) [النساء ٣٤] فالتعبير بالأموال وإضافتها إلى ضمير الرجال مناسب لبيان فضلهم لكسبهم وكَدِّهم ٠

والتعبير بالرزق فى قوله تعالى (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) مناسب للتعبير به فى قوله تعالى فى هذا السياق (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) وقوله (لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) ؛ فالأنعام رزق من الله تعالى يستوجب الشكر، والمال الذى يشترونها به رزق آخر منه يستوجب الشكر ٠

والإنفاق هنا عام يشمل الزكاة وغيرها من الصدقات ٠ والفعل المضارع " يُنفِقُونَ " دال على التجدد أى أنهم يجددون الإنفاق ويحصل منهم مرة بعد مرة، لثقتهم فى عطاء الكريم جل جلاله، وأنه يخلف ما أنفقوا، فتمتد أيديهم للفقراء لأن يد الله ممدودة إليهم بالعطاء ٠

****

قوله تعالى (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٠ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) [الحج ٣٦، ٣٧] ٠

بهاتين الآيتين ختم الحديث عن الحج فى السورة، قال البقاعى (لمَّا قَدَّمَ سبحانه الحثَّ على التقرب بالأنعام كلها، وكانت الإبلُ أعظمَها خَلْقا، وأجلَّها فى أنفسهم أمرا، خصها بالذِّكْر فى سياقٍ تكون فيه مذكورةً مرتين) [٢] ؛ وعلى هذا فذكر البدن من الخاص بعد العام اعتناء به

(١) ينظر الكشاف ١/ ١٣٢
(٢) نظم الدرر ٥/١٥٣

وبُدْن: جمع بَدَنَة، خُفِّفَ الجمع بسكون الدال، والأصل بُدُن بضمها، وقرىء بضمها على الأصل، ونظيرُهُ خُشُب جمع خَشَبَة، وثُمُر جمع ثَمَرَة، وتطلق البدن على الإبل خاصة لعِظَمِ بَدَنِها، وألحق الرسول صلى الله عليه وسلم بها البقر حين قال (البَدَنَةُ عن سَبْعَةٍ والبَقَرَةُ عن سَبْعَةٍ) (١)؛ فصارت البدنة فى الشريعة متناولةً للجنسين وإن كانت فى اللغة للإبل خاصة (٢) .

وآثر النظم لفظ " الْبُدْن " لما فيه من دلالة على البدانة والامتلاء باللحم، وهذا مناسب لمقام الامتنان بتسخيرها وتذليلها مع ضخامة جسمها وعِظَم جِرْمها ؛ وبهذا تتجاوب أول كلمة فى الآية مع ختمها بالتذكير بنعمة تسخيرها الموجبة للشكر فى قوله (كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، ومناسبة البدن الدال على البدانة لجمع اللحوم والدماء فى قوله (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا)ظاهرة .وكلمة البدن لم تستعمل إلا فى هذا الموضع ولا تسد "الإبل" مسدَّها .

و(الْبُدْنَ) منصوب على الاشتغال، فهو مفعول به لفعل محذوف وجوبا يفسره الفعل المذكور بعده (جَعَلْنَاهَا)، والتقدير: وجعلنا البدن جعلناها، وجملة جعلناها من الفعل والفاعل والمفعول لامحل لها من الإعراب لأنها مفسِّرَة . وقُرِىء (وَالْبُدْنُ) بالرفع على الابتداء والجملة بعده خبر (٣). وفى نصب (الْبُدْنَ) فى صدر الجملة دون أن يتقدمه عامل إبهام يحتاج إلى إيضاح، فلما قال بعده (جَعَلْنَاهَا) وضح الإبهام ؛ فحصل للنفس بالإبهام تشوق إلى المعرفة، وحصل لها بالإيضاح فرح بحصولها .وقراءة رفع البدن بالابتداء وجملة (جَعَلْنَاهَا) خبر لا تخلو من التشويق ؛ لأن تقديم الاسم " البُدْن " معرَّىً عن العوامل لا يكون إلا إذا نُوِىَ إسناد شىء إليه، فتتوق النفس إلى معرفته (٤)؛ ففى كلتا القراءتين عناية بالبدن واهتمام بها، ويتبين فضلُهما إذا قُدِّمَ الفعل وبُنِىَ الاسمُ عليه فقيل: وجعلنا لكم البدن من شعائر الله ؛ فلا نجد شيئا مما سبق وقُدِّمَ لفظ (الْبُدْنَ) للاهتمام به والاعتناء بشأنه لأنه القطب الذى يدور عليه الكلام فى الآيتين . والفعل " جعل " المسند إلى ضمير العظمة فى (جَعَلْنَاهَا) له مزيد اعتلاق بهذا السياق، فهو يقوى عطف الجملة على جملة (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً) لذكره فيهما، كما ذُكِرَ فى صدر آى الحج فى السورة فى قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) [الحج ٢٥]، ويربط أى الحج فى السورة بأخواتها فى سورتى البقرة

(١) رواه الترمذى فيما جاء فى الاشتراك فى الأضحية ٥/ ٤٦٠ برقم ١٤٢٢ وفى مسند أحمد من حديث جابر ، وقال فى مجمع الزوائد : رجاله ثقات
(٢) ينظر الكشاف ١٤/٣
(٣) ينظر روح المعانى ١٠/ ٣٢١ وشرح قطر الندى لابن هشام ص ٢١٦
(٤) ينظر دلائل الإعجاز ت محمود شاكر ص ١٣٢ ط الخانجى

والمائدة لذكره فيهما، ففى البقرة (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً)[البقرة ١٢٥] وفى المائدة (جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ) [المائدة ٩٧]، وهذا ترابط لفظى يشد آى الحج فى القرآن الكريم ويجعلها ذوات رحم وقُرْبَى ٠ وقوله (جَعَلْنَاهَا) يدل على أن البدن صارت من شعائر الله بأمر الله جل جلاله وحُكْمِه وتشريعه وحكمته، فهو الذى جعلها كذلك كما جعل لكل أمة منسكا وجعل البيت الحرام للناس سواء العاكف فيه والباد وجعله مثابة للناس وأمنا وجعل الكعبة البيت الحرام قياما للناس، فهذا كله جعلٌ من الله وتشريعٌ وأمرٌ وحكمٌ وحِكْمَةٌ ينبغى أن يتلقاها العبد بالامتثال والرضا والتسليم والحب والشكر ؛ لأنها شُرِعَتْ لأجله هو ولمصلحته ولنفعه ؛ ولذا ذُكِرَ الجار والمجرور " لكم " بعد الفعل " جعلنا " فى قوله تعالى (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ) ٠

وجملة (لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) نظير جملة (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ) [الحج ٣٣]، وفُسِّرَ الخير بالمنافع الدنيوية من شُرْبِ ألبانها وركوب ظهورها ونحوهما، وبالمنافع الدينية من الثواب والأجر بإطعام الفقراء، فالخير شامل لهما لعمومه وإطلاقه عن التقييد ٠ وفى قوله (لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) و(لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ) ترغيب وإغراء باقتناء البدن واصطفائها للهَدْى ؛ لأن (من شأن الحاج أن يحرص على شىء فيه خير ومنافع بشهادة الله ٠ وعن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنانير فاشترى بها بَدَنَة، فقيل له فى ذلك، فقال: سمعتُ ربى يقول: " لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ")[١]

والجار والمجرور (لكم) تكرر فى الآية ثلاث مرات (جَعَلْنَاهَا لَكُم – لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ – سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ)، وهذا التكرار يؤكد المعنى ويملأ النفوس به، أى أن البدن نفعها لكم أنتم، وقوله تعالى (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا) امتداد لهذا المعنى، وفيه فضل توكيد له ؛ لأن الله سبحانه لا ينتفع منها بشىء ؛ وبهذا يكون المعنى: أن البدن خيرها لكم لا لله، وهذا أسلوب قصر إضافى، يحتمل أن يكون قصر قلب مقصودا به قلب ما كان يعتقده أهل الجاهلية من تشريح لحوم البدن ونصبها حول الكعبة قربانا لله تعالى وتلطيخ الكعبة بدمائها؛ فدل القصر بتقديم الجار والمجرور (لكم) على المبتدأ (خَيْرٌ) على أن خير البدن لكم لا لله ؛ فلا ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ٠ ويحتمل أن يكون قصر إفراد لأن الانتفاع بلحوم البدن كان عندهم شركةً يَطْعَمُ منها الفقراء ويُشَرَّحُ منها حول الكعبة؛ فجاء قوله " لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ " بمعنى: لكم وحدكم خيرها وليس لكم ولله.

وتقديم (فيها) على متعلقه (خَيْرٌ) للاهتمام بما تحتوى عليه من الفوائد [٢]. وتنكير (خَيْرٌ) للتكثير،أى لكم فيها خير كثير فى الدنيا والآخرة، وذكر الطاهر أنه للتعظيم[١]، وأرى

(١) الكشاف ١٤/٣
(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٧/ ٢٦٣

أن التكثير للخير أنسب ؛ لأن الخير وُصِفَ فى القرآن الكريم بالكثرة لا بالعِظَم فى قوله تعالى (وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) [البقرة ٢٦٩] (فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً) [النساء ١٩]، كما أن كلمة (خَيْرٌ) هنا نظير كلمة (مَنَافِعُ) وبها فُسِّرَتْ، وكلتا الكلمتين نكرة للتكثير، أى لكم فيها خير كثير ومنافع كثيرة، وقد وُصِفَتْ (مَنَافِعُ) فى القرآن الكريم بالكثرة لا بالعِظَمِ فى قوله تعالى عن الأنعام (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ)[المؤمنون ٢١] .

وفُصِلَتْ جملة (لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) ولم تُعْطَفْ على التى قبلها (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ) لأنها مؤكِّدةٌ ومقرِّرَةٌ لها [٢]، وهذا يعنى أن جملة (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ) تدل بفحواها على أن لكم فى البدن خيرا ؛ لأن شعائر الله تعالى ومناسكه ومعالم دينه لا تكون إلا لخيركم ونفعكم ؛ فالله جل جلاله لايشرع لأوليائه وأصفيائه من أهل الإيمان إلا ما يصلحهم،

وجملة (لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) مؤكِّدةً ما دلت عليه الأولى .

قوله تعالى (فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ) معطوف بالفاء على ما قبله للدلالة على ترتبه عليه بلا مُهْلَة ؛ لأن شأن المؤمن إذا علم بترغيب الله تعالى فى أمر – وكان مُطِيقاً له قادرا عليه – أن يبادر إلى امتثاله تنفيذا لأمر الله تعالى ومسارعة إلى الخيرات .

وطوى السياق جملا كثيرة تم حذفُها إيجازا واختصارا ؛ إذ المعنى: فبادروا إلى شراء البدن وأغلوها الثمن واختاروا أحسنها وأسمنها، وأشعروها بحديدة فى جنبها، وقلَّدُوها لِتُعْرَفَ بين البُدْن وتتميز بأنها مسوقة للهَدْى، ثم سوقوها إلى البيت العتيق، فإذا كان يوم النحر فاذكروا اسم الله عليها صواف . طوى السياق ذلك لظهور المعنى وإثارة لفطنة السامع ومسارعة إلى استحضار الأهم الذى يحرص السياق على أن لا تنشغل بغيره وهو ما نص عليه من ذكر اسم الله تعالى عليها عند النحر وتصوير هيئتها وسقوط جنوبها وإطعام القانع والمعتر حتى يصل بسرعة إلى أعلى الغايات وأسماها وهى أنها كانت بابا لرضوان الله تعالى على صاحبها إذا اتقى الله جل جلاله وأخلص النية .

والانتقال من الأسلوب الخبرى فى قوله (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) إلى الأسلوب الإنشائى المفتتح بفعل الأمر فى قوله (فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ) فيه إيقاظ ولفت للانتباه مما لو سار النظم على الأسلوب الخبرى السابق فقيل:

(١) ينظر السابق
(٢) ينظر روح المعانى ١٠/ ٢٣١

لتذكروا اسم الله عليها صواف ، وأوثر فعل الأمر لمزيد العناية بنحر البُدْن (وللتنبيه على أن الغرض الأصلى فيما يتقرب به إلى الله أن يُذْكَرَ اسمُه) (١)

و(صَوَافَّ) أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، جمع صافَّة من صَفَّ يَصُفُّ ، والسُّنَّةُ أنْ تُنْحَرَ قائمةً معقولةً إحدى يديها فتكون قائمة على ثلاث، وعَقْلُها عند النحر سُنَّةٌ، لما أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رأى رجلا قد أناخ بدنته وهو ينحرها، فقال: ابْعَثْها قياما مقيَّدةً ؛ سُنَّةَ محمد صلى الله عليه وسلم(٢)، والأكثرون على عقل اليد اليسرى (٣) .

ومفعول (صَوَافَّ) محذوف، والتقدير صواف الأيدى والأرجل،أى قد صففن أيديهن وأرجلهن (٤)، وما جاء فى السنة من أن هيئتها عند النحر أن تُبْعَثَ قياما معقولة إحدى يديها يُفَسِّرُ المفعولَ المحذوف .

والتقييد بصواف فيه تكثير سوادها للناظرين وتقوية قلوب المحتاجين (٥)، وما أحسنَ قول الطاهر (وفائدة هذه الحال ذِكْرُ محاسنَ من مشاهدة البدن ؛ فإن إيقاف الناس بُدْنَهُم للنحر مجتمعة ومنتظمة غير متفرقة مما يزيد هيئتها جلالا) (٦) .

وجَمْعُ صافَّة على صَوَافّ لم يرد فى القرآن الكريم إلا فى هذا الموضع ؛ لأن صَوَافّ جمع كثرة بزنة فواعل للترغيب فى الإكثار من نحر البدن لكثرة الإنفاق فى شرائها وإغلاء سمنها تقربا إلى الله جل جلاله بالكثير الطيب، ولكثرة نفعها للفقراء لبدانتها وكثرة لحومها، وما كان أعظم نفعا للفقراء فالقرآن الكريم يرغب فيه ويحث عليه زيادة فى الإحسان إليهم وسد خَلَّتِهم وإشاعة لروح التآلف والتكافل والتراحم بين أفراد الأمة ؛ ولهذا لم تُجْمَعْ صافة هنا بالألف والتاء فلم يقل "صافَّات" لأن الجمع بالألف والتاء من جموع القلة، مع أنه جاء فى قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) [النور٤١] (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ) [الملك ١٩]، وجمع القلة فى الآيتين مناسب ؛ لأن دلالة الطير ببسط أجنحتها وقبضها على القدرة الإلهية التى تمسكها يدل عليها القليل كما يدل عليها الكثير .

قوله تعالى (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) عطف بالفاء على قوله (فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ)، والضمير فى (جُنُوبُهَا – مِنْهَا) يعود على البدن،

(١) الكشاف ١١/٣
(٢) رواه البخارى فى كتاب الحج باب نحر الإبل مقيَّدة برقم ١٦٢٧
(٣) ينظر الكشاف ٣/ ١٤ وروح المعانى ١٠/ ٢٣١ وتفسير القرطبى ٤٤٥٤/٧
(٤) ينظر روح المعانى ١٠/ ٢٣١
(٥) ينظر تفسير الرازى ١١/ ٢٧٨ وغرائب القرآن للنيسابورى ١٧/ ٩٠
(٦) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٦٤

أى إذا سقطت جنوبها على الأرض فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر، ودلت الفاء على الترتيب والتعقيب بلا مُهْلَة، أى ترتيب سقوط جنوبها على ذكر اسم الله عليها صواف، فوقوع جنوبها على الأرض يكون بعد ذكر اسم الله عليها مباشرة بلا فاصل أو مهلة، وفى هذا دعوة إلى إحسان نحرها لتقع جنوبها بمجرد النحر، فلا تعذب البدن بوقوفها صواف معقلة تنتظر النحر .

والتعبير بـ (إذا) الشرطية دون (إنْ) للدلالة على تحقق سقوط البدن ووقع جنوبها على الأرض، فإذا تحققتم من ذلك حل لكم الأكل منها .

والوجوب: السقوط والوقوع على الأرض، فقوله (وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) يعنى سقطت على الأرض ؛ لأن السنة أن تنحر البدن قياما مُعَقَّلَة . يقال: وَجَبَ فلانٌ إذا مات . ووَجَبَ الحائطُ يَجِبُ وجْباً ووَجْبَةً: سَقَطَ . وكل شيء سَقَطَ وسُمِعَ له هَدَّةٌ فقد وَجَب[1] .

ووجبت جنوبها كناية عن الموت ؛ لأنه يلزم عن سقوط جنوبها على الأرض عقب نحرها موتها . وأوثر أسلوب الكناية على التصريح بأن يقال: فإذا ماتت ؛ لأمور:

الأول: لترتب الأمر بالأكل منها على وجوب جنوبها، والترغيب فى الأكل منها لا يناسبه التعبير بـ " ماتت " ؛ لذا أعرض القرآن الكريم عن كلمة " ماتت " .

والثانى: ما فى الكناية من ذكر الشيء بدليله ؛ فالدليل على موتها عقب ذكر اسم الله عليها ونحرها هو وقوع جنوبها .

والثالث: أن (وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) يصور جنوب البدن الممتلئة لحما وهى تقع على الأرض، فيها لحم كثير وفير حلال يغرى بالطبخ والأكل (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) لطيب لحمها وكثرته ووفرته، ولو قيل: " ماتت " بدل (وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) لما دَلَّ على ذلك .

وتخصيص جنوبها بالذكر مع أن البدن إذا نُحِرَتْ سقطت كلها بجميع أعضائها ؛ لأن جنوبها أكثرها لحما وأثقلها وزنا ؛لذا تكون أول ما يَهْوِى ويسقط على الأرض .ولو قيل:فإذا وجبت فكلوا منها ؛ لدلَّ على سقوطها على الأرض ؛ لأن وجوب الشيء يعنى سقوطه، لكن النظم الشريف أسند الفعل إلى جنوبها لأن الجنوب أكثر لحما وأثقل وزنا .

وقصر الإمام الشافعى البدن على الإبل خاصة دون البقر لقوله تعالى (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) إذ هذا الوصف خاصٌّ بالإبل ؛ لأنها تنحر قائمة فإذا نحرت سقطت جنوبها على الأرض، بخلاف البقر فإنه يُضْجَعُ ويُذْبَحُ كالغنم . وهذا من الأحكام الفقهية المؤسَّسة على فقه أسرار التعبير القرآنى، كما استدل الإمام بقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث

(١) ينظر لسان العرب ، والمفردات : وجب

الصحيح فى يوم الجمعة: (من راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة) [١] ؛ فتفريقه عليه الصلاة والسلام بين البقرة والبدنة يدل على أن البقرة لا يقال لها بدنة، هذا مذهب ابن مسعود وعطاء والشافعى رحمة الله عليهم ٠ وذهب الإمامان مالك وأبو حنيفة إلى أن البدن الإبل والبقر، واستدلا بأن البدنة مشتقة من البدانة وهى الضخامة، والضخامة توجد فى الإبل والبقر جميعا، كما استدلا بما جاء فى الحديث من أن البقرة تجزىء فى الهدى والأضاحى عن سبعة كالبدنة[٢]، واختلاف الفقهاء فى الأحكام مبنى فى كثير منه على اختلاف فى فقه أسرار البيان، وهذا باب جليل ينبغى أن تفيد منه الدراسات البلاغية ؛ لأنه لايزال مطويا على كثير من نفائسه وودائعه ٠

قوله تعالى (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) جواب " إذا " الشرطية، وهذا يعنى ترتُّب الأكل من البدن والإطعام على وجوب جنوبها ٠ وبين فعل الشرط وجوابه كلام محذوف ؛ لأن بين سقوط جنوبها على الأرض والأكل منها أشياء لا بد أن تكون ؛ فالتقدير: فإذا وجبت جنوبها وخرجت الرُّوْحُ وبَرَدَتْ أجسامُ البدن وسُلِخَتْ وقُطِّعَ لحمها ثم طُبِخَ ؛ فكلوا منها ؛ لأن الأكل منها لا يكون إلا بعد ذلك كله، ولا تُسْلَخُ الذبيحة حتى تَبْرُد وتسكن رُوْحُها وإلا كان ذلك من باب التعذيب ؛ ولهذا قال عمر رضى الله عنه " لا تعجلوا الأنفس أن تزهق "" [٣] ٠

وتقديم الأمر بالأكل منها على الأمر بإطعام القانع والمعتر كتقديمه فى قوله تعالى (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) ؛ وفيه اعتناء بمخالفة هَدْيِ أهل الشرك ؛ فإنهم كانوا لا يأكلون من الهدى، بل يتركونه كله للفقراء تكبُّراً واستعلاء ٠

والأمر فى (فَكُلُوا مِنْهَا) للإباحة أو الندب لا للوجوب، فلو نحر الهدى أو الأضحية ولم يأكل منها أجزأه وإن لم يكن ذلك مستحبا، أما الأمر فى (وَأَطْعِمُوا) فللوجوب، هذا فيما كان تطوعا، فأما واجبات الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئا [٤].

والقانع: الفقير الراضى بما عنده من غير مسألة ولا تعرضٍ لها، من قَنِعَ يَقْنَعُ قَنَعَاً كتَعِبَ يَتْعَبُ تَعَبَاً ٠ والمُعْتَرُّ: الفقير المتعرض للسؤال، من اعتراه إذا تعرض له ؛ فهو الذى يُطِيْفُ بك يطلبُ ما عندك، سائلا كان أو ساكتا معرِّضاً عن سؤاله بحضوره موضع السؤال وإن لم يسأل ٠

وهذا التفسير مرويٌّ عن ابن عباس وجماعة من أهل العلم ٠ وقال آخرون: القانع: السائل، من قَنَعَ إليه يَقْنَعُ كسَأَلَ يَسْأَلُ لفظا ومعنى، والمصدر القُنُوع، فالقانع على ذلك المتصف

(١) متفق عليه واللفظ للبخارى فى باب فضل الجمعة برقم ٨٨١ ومسلم برقم ٨٥٠
(٢) ينظر تفسير القرطبى ٤٤٥٣/٧
(٣) ينظر الكشاف ٣/ ١٥ والقرطبى ٤٤٥٦/٧ والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٦٤
(٤) ينظر تفسير القرطبى ٤٤٥٦/٧

بالقُنُوع وهو التذلل فى المسألة . قال بعضهم: يجوز أن يكون السائل سمى قانعا ؛ لأنه رَضِيَ بما يُعْطَى قلَّ أو كَثُرَ ويقبله ولا يرده ؛ فيكون معنى القانع على كلا التفسيرين راجعا إلى الرضا [1] .

والقول الأول أحب إلىَّ لأن قوله تعالى (وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) نظير قوله (وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ)، وقد بدأ بوصف البؤس لأنه أشد، ففيه تدرج من الأعلى إلى الأدنى ؛ فيناسبه أن يكون القانع بمعنى الراضى المتعفف عن المسألة لأن حاله أخفى من حال المعتر المتعرض للسؤال فإعطاؤه أولى ؛ وبذا يسير الترتيب فى الجملتين على طريق البدء بأعلى الوصفين . والله أعلم .

وفى قوله تعالى (وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) حسن تقسيم لاستيفائه أصناف الفقير لأنه لا يخرج عن ان يكون قانعا راضيا متعففا عن المسألة، أو معترا متعرضا بارزا للناس، وهذا المتعرض للناس إما أن يسألهم أو لا، وكلمة " الْمُعْتَرَّ " تشملهما .

وقدم القانع الراضى المتعفف للحث على السؤال عنه لخفائه، بخلاف المعتر السائل الباسط يده فأمره ظاهر ؛ ففى تقديم القانع حثٌّ على العناية بمن تعفَّف ورضى بقضاء الله .

وبين القانع والمعتر طباق ميز الصنفين أكمل تمييز، وأفرد القانع والمعتر كما أفرد البائس الفقر، فلم يقل: وأطعموا البؤساء الفقراء، وأطعموا القانعين والمعترين . والمفرد هنا بمعنى الجمع، وذكر الطاهر المفرد يدل على إعطاء الواحد ما يكفيه [2].

قوله تعالى (كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ) الكاف للتشبيه، والمعنى: سخرنا البدن لكم تسخيرا كذلك التسخير، فالمشبه تسخير البدن لكم، والمشبه به ذلك التسخير الذى ذكرت الآية منه إشعارها بحديدة فى جسمها فتُجْرَح فيُعْلَم بذلك أنها هَدْىٌ للكعبة فلا يُتَعَرَّض لها، والذى أقدركم على إشعارها مع ضخامة أجسامها وشدة فتكها هو الله جل جلاله . وذكرت الآية من منافع تسخير البدن انتفاعكم منها بخير كثير أجملته الآية ولم تذكر منه إلا الأكل والإطعام. ومن تسخيرها تمكينكم من صَفِّها عند النحر وهى قوائم لتتمكنوا من نحرها والذى أقدركم على ذلك كله هو الله جل جلاله، ولولا أنه سخرها لكم ما قدرتم على تذليلها والانتفاع بخيرها ولا على صفها ولا على نحرها . التشبيه يفيد أن تسخيره جل وعز للإبل بلغ الغاية وصار أصلا يُشَبَّه به ومقياسا يُقاس عليه. إن قدرة الإنسان على الإبل أشبه بقدرة النملة على اقتياد الفيل وتذليله ونحره، وهو شىء محال بمقاييس

(١) ينظر تفاسير الطبرى ١٢١/١٧ والكشاف ١٥/٣ ، وروح المعانى ١٠/ ٢٣٣ والقرطبى ٤٤٥٦/٧ والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٦٥ ، ٢٦٦ والمفردات للراغب ٥٣٤/٢ " قنع "

(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٧/ ٢٦٥ ، ٢٦٦

العقول ولكن قدرة الله جل جلاله إذا تعلقت بالمحال جعلته ممكنا بل وسهلا، جعلت الغلام الصغير يقود البعير الضخم الذى لو وضعه بين فكيه لصار لقمة سائغة، بل جعلت الغلام يضرب البعير ويزجره ويعقله ويطلقه ويركب ظهره ؛ فسبحان من أقدره على ذلك !! وما أحسن قول العلامة الزمخشرى: (مَنَّ الله على عباده واستحمد إليهم بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذى رأوا وعلموا؛ يأخذونها منقادة للأخذ طيعة، فيعقلونها ويحبسونها صافَّة قوائمها، ثم يطعنون فى لِبَّاتِها ؛ ولولا تسخير الله لم تُطَقْ، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التى هى أصغر منها جِرْماً وأقلُّ قوة، وكفى بمن يتأبَّدُ من الإبل شاهدا وعبرة) [1] .

والخطاب فى (لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) و(سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ) للمؤمنين، مع أن الخير الدنيوى للبدن ينتفع به المؤمن والكافر، والله عز وجل سخرها وجعلها منقادة طيِّعَةً للمؤمن والكافر، ولكن لما كان للمؤمنين فيها مَزِيَّةٌ ليست لغيرهم وهى كونها من شعائر الله ومعالم الإسلام خَصَّ سبحانه المؤمنين بالخطاب لأنهم الذين ينحرونها تقربا إليه سبحانه .

و" لَعَلَّ " فى قوله تعالى (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) للترجِّى، والله سبحانه وتعالى لا يرجو من خلقه أن يشكروه ؛ ولذا حمل الزمخشرى الترجى فى مثل هذا على المجاز، وذكر له وجهين[2]، الوجه الأول: أنه استعارة تمثيلية ؛ شُبِّهَتْ حالُهم بحال قوم أنعم عليهم إنسانٌ كريمٌ فاضل بنعمة عظيمة ؛ فيُتَوَقَّعُ منهم أن يشكروه ولا يكفروه، ثم حُذِفت هيئة المشبه واستعيرت لها هيئة المشبه به، فالمشابهة قائمة بين حال العباد وحال المرجوِّ منهم الشكر .

والوجه الثانى: أن يكون استعارة تبعية فى حرف الترجى " لعل " ؛ شُبِّهَتْ إرادتُه تعالى منهم الشكر بالترجى، ثم استُعِيرَ الترجى للإرادة، فالاستعارة فى الإرادة وحدها، استعيرت لها الكلمة الموضوعة للترجى .

إن الله تعالى خاطب العرب بما جرت به عادتهم من أنه إذا أُسْدِىَ إليهم معروف من كريم من أجوادهم فإن شكره حتمٌ لازمٌ عليهم ودَينٌ مُسْتَحَقٌّ فى رقابهم، فحالُهُم حال من يُتَوَقَّعُ منه الشكر ويُرْجَى منه ويُتَرَقَّب ؛ فصور الذكر الحكيم باستخدام حرف الترجى حال العباد مع نعم الله المتواترة عليهم وآلائه السابغة التى يَغْذُوهم بها بالليل والنهار، بحال هؤلاء القوم، ورضى سبحانه منهم بما يرضونه مع من أحسن إليهم من خلقه وأسدى إليهم معروفا وإن كان قليلا ضئيلا فى جنب عطائه جل جلاله . وقد نطقت أشعارهم وأخبارهم بحسن المكافأة وقُبْح كُفْران الجميل، ووصفوا من أساء إلى من أحسن إليه باللؤم والخسة والدناءة، وذكروا أن كفر النعمة من لؤم الطبيعة ورداءة الديانة، وقال الإمام علىٌّ: اعلم أن كفر النعمة لؤم، وضربوا المثل بـ " ناشرة " فى كفر النعمة فقالوا " أَكْفَرُ مِن نَاشِرَة "، بلغ

(١) الكشاف ٣/١٥
(٢) ينظر الكشاف وحاشية السيد الشريف عليه ١/٢٣١

من كفره أن هَمَّامَ بن مُرَّةَ كان استنقذه من أُمِّهِ وهى تريد أن تَئِدَهُ لعجزها عن تربيته، فأخذه ورباه، فلما ترعرع سعى فى قتل همام، ومن أمثالهم " مَنْ كَفَرَ النِّعْمَةَ، اسْتَوجَبَ النِّقْمَةَ " و " الكفر مَخْبَثَةٌ لنفس المُنْعِمِ "، وقال ابن عباس رضى الله عنه: لو أن فرعون مصر أسدى إلىَّ يَدَاً صالحةً لشكرتُه عليها، وقال ابن المعتز: المعروف غُلٌّ لا يَفُكُّهُ إلا شكرٌ أو مكافأة ٠ وقال ابن وهب: ترك المكافأة من التطفيف، وشَبَّهُوا النعمةَ التى لا تُكَافَأُ بالشكر بالبَذْرَةِ تُلْقَى فى أرضٍ سَبَخَة [١] ٠

****

قوله تعالى (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) [الحج ٣٧] ٠

الضمائر فى (لُحُومُهَا – دِمَاؤُهَا – سَخَّرَهَا) تعود على البدن، فلا تزال البدن هى المركز الذى تدور حوله المعانى فى الآيتين ٠ وعودُ الضمائر عليها رباطٌ لفظىٌّ يشد أواصر الكلام٠

جاء فى أسباب النزول أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن نضحوا دماءها حول البيت ولطخوه بها، وكانوا يشرحون لحومها وينصبونها حول الكعبة قربانا لله تعالى، زيادة على ما يعطونه للمحاويج، فإذا نصبوا اللحم حول الكعبة قربانا لا يدعون أحدا يأكله [٢]؛ وعلى هذا فالآية جاءت لإبطال ما كان أهل الجاهلية يصنعونه فى لحوم البدن ودمائها، ولبيان أن الله جل جلاله لا ينتفع بشىء من البدن، بل تنتفعون أنتم بها فتأكلون وتطعمون القانع والمعتر، ولن تنالوا رضا الله تعالى وقبوله بلحوم البدن ودمائها ولكن بالتقوى التى تعمر قلوبكم، ومن تقوى قلوبكم أن تنحروها تريدون بها وجه الله تعالى ورضاه وتعظمون بها حرماته وشعائره، وتتصرفون فيها بما أمركم من الأكل منها وإطعام القانع والمعتر، فإن لم تراعوا ذلك لم تُغْنِ عنكم التضحيةُ والتقريب وإن كثر ذلك منكم؛ وفى هذا دليل على أن النية خير من العمل، وأن الأعمال بدونها صورٌ لا روح فيها ؛ فلن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها لأنها مجرد صور لا روح فيها، ولكن يناله التقوى منكم ؛ لأن التقوى روح كل عمل ؛ فالنفى لصورة لا روح فيها،والإثبات لذات الروح، وفى الحديث (إنما الأعمالُ بالنِّيَّات، وإنما لِكُلِّ امرىءٍ ما نَوَى)[٣] ٠

(١) ينظر الصناعتين ٢٤٣ ، ٢٤٤ والعقد الفريد ١٩١/١ وجمهرة الأمثال ١٤٧/٢ وربيع الأبرار ٣٢٥/٤

(٢) ينظر الكشاف ١٥/٣ ، والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٦٧ ، ٢٦٩

(٣) ينظر تفسير الطبرى ١٢٢/١٧والكشاف ١٥/٣ونظم الدرر ١٥٥/٥ والحديث رواه البخارى فى كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم ١

والنَّيْل: الإصابة، وفى الجملة إيجاز بحذف المضاف، والتقدير: لن ينال رضا الله لحومُها ولا دماؤها ؛ لأن الله سبحانه منزَّهٌ عن أن يصل إلى ذاته الشريفة لحومُ البدن ودماؤها، فالمراد نيلُها رضاه وقبوله وما يتبع ذلك من الأجر والثواب ٠ ودل حذف المضاف على أنها إذا نالت رضا الله تعالى وقبوله فقد صعدت إليه جل جلاله، وفى هذا كناية عن طيبها وأنها مما ابْتُغِيَ بها وجه الله ؛ لأنه سبحانه طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيبا (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) [فاطر ١٠] ٠ كما أعطى حذف المضاف صورة غريبة مُنْكَرَةً حرصت الجملة على نفيها، وهى أن لحوم البدن ودماءها تنال الله سبحانه وتصل إليه كما تصل إلى الأصنام التى كان أهل الجاهلية ينحرون لها القرابين ؛ فجاءت الجملة لتنزِّه الله جل جلاله عن ذلك، لأنه وهم فى أصل الاعتقاد حَرَصَت الجملة على نفيه وتصويبه بأسلوب القصر الذى طريقه العطف بـ " لَكِنْ " ؛ لأن القصر يعنى النفى والإثبات: النفى فى صدر الجملة (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا) والإثبات عن طريق الاستدراك بـ " لكن " التى تدل على أن المثبت بعدها ضد المنفى قبلها (وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ)، وهذا يعنى أن المنفى فى صدر الجملة ضد التقوى لأنه خال منها فهو مجرد صورة لم تقترن بالتقوى والإخلاص، وإذا نُزِعَ الإخلاص والتقوى من العمل نزعت منه الروح، وهذه تربية للحجيج أن لا يقفوا أمام الصور والظواهر فى أعمال الحج وغيرها بل ينفذوا إلى اللب والجوهر والأسرار والأنوار ٠ وأوثر القصر بطريق العطف لأنه يدل على المنفى والمثبت بصريح اللفظ، كما أن الاستدراك بـ " لكن" فيه مزيد إيقاظ وتنبيه ؛ لأنه يدل على نقض ما قبله وإبطاله وهدمه ثم تصحيحه وإحلال الحق محله، وفى هذا إثارة لأنه يعرض الشيء وضده، وللنفوس غَرَامٌ وتَوْقٌ إلى رؤية الباطل والخطأ وهو ينهدم ويزول، ورؤية الحق والصواب وهو يحل محله ويرث دولته ويُمَكَّنُ له ٠

وتكرر الفعل (يَنَالُ) بعد " لكن " ولم يقل: لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن التقوى منكم، لتأكيد المعنى بعرضه فى صورتين منفية ومثبتة، ففيه طباق سلب يظهر المعنى ٠

وفى قوله (وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ) حذف كالذى فى قوله (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا)، والتقدير: ولكن ينال رضاه التقوى منكم، أى تنالون قبوله وثوابه بالتقوى، كناية عن أنه تعالى يمنحكم الثواب والأجر عليها ؛ لأنه سبحانه لا تنفعه طاعة الطائع ولا تضره معصية العاصى ٠

ولمح البقاعى معنى حسنا فى تقديم المفعول به – اسم الجلالة " الله " – على الفاعل " لحومُها " ؛ قال: (لما كان السياق للحث على التقريب له سبحانه، كان تقديم

اسمه على الفاعل أنسب للإسراع بنفي ما قد يتوهم من لحاق نفع أو ضر) [1]. وقدم اللحوم لأنها أكثر نفعا للناس ؛ فمنها يَطْعَمُون ويُطْعِمون، والله جل جلاله يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ . وعُطِفَ (وَلَا دِمَاؤُهَا) على (لُحُومُهَا) لإنكار ما كانوا يصنعون فى الجاهلية من تلطيخ الكعبة بالدماء المهراقة من البدن والذبائح . وجُمِعَ لحومُها ودماؤها للدلالة على الكثرة، أى لن ينال رضا الله كثرةُ لحومها ولا كثرة دمائها، فلا قيمة لتقريبها ولو كثُرَت إذا كانت صورة بلا روح، وروحها التقوى، (قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [المائدة ١٠٠]، ويلاحظ الأمر بالتقوى عقيب الخبيث والطيب، فالخبيث ما نزعت منه التقوى، والطيب ما قام
عليها، وجمع النظائر فى القرآن باب جم المحاسن. والله الكريم يرضى عن القليل ويباركه ويُرْبيه ما كان خالصا لوجهه (يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) [البقرة ٢٧٦]؛ لأن قبول العمل لا يناط بكثرته بل بسداد القصد وإخلاص النية . ولم ترد كلمة (لحوم) جمعا فى القرآن الكريم إلا فى هذا الموضع .

وتكررت (لا) النافية مع المعطوف فى (وَلَا دِمَاؤُهَا) لتعلق النفى بكل من المعطوف والمعطوف عليه ؛ كيلا يُتَوَهَّمَ أن المنفى هو المجموع ؛ فيجوز حينئذ ثبوت أحدهما [2] .

وذُكِرَ الجار والمجرور (مِنكُمْ) فى قوله (وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ)، وهو موضع فريد لم يتكرر فى القرآن الكريم، على الرغم من كثرة ذكر التقوى فيه، فهو قرين (تَقْوَى الْقُلُوبِ) التى لم تذكر إلا فى قوله (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ). وفى ذكر الجار والمجرور تصريح بأن التقوى التى تنال رضا الله تعالى كائنة منكم وصادرة عنكم ومضافة إليكم، فهى شىء نبيل منكم وعمل جليل يصعد إلى معارج القبول والرضا .

وهذه التقوى الصادرة (منكم) هى فى الحقيقة هِبَةٌ من الله تعالى لكم، فهو الذى يُلْهِمُ النفوس تقواها (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) [الشمس ٧، ٨]، ومع أن التقوى هبة من الله لكم فإنه نسبها إليكم فقال (مِنكُمْ – وَتَقْوَاهَا) تشريفا لكم وتقديرا لكسبكم وكَدْحِكُم حتى حَصَّلْتُمُوها وزينتموها فصعدت إلى الله جل جلاله فقبلها ورضى عنها ؛ وفى هذا زيادة حث على التزود من التقوى، كما فى قوله تعالى (وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) [البقرة ١٩٧]، ومنه أيضا التناسب بين قوله تعالى (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ) وقوله فى سورة البقرة (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى) ففى كل منهما نفى لأن يكون نيل البر ونيل رضا الله جل جلاله بأمور شكلية ظاهرية، بصور لا روح فيها: فليس البر الذى ينال رضا الله تعالى هو إتيان البيوت من ظهورها ولا صورة

(١) نظم الدرر ٥/١٥٥
(٢) ينظر حاشية السيد الشريف على الكشاف ١/ ٧٢

اللحوم والدماء التى يتقرب بها العبد لربه؛ ولكن يُنَالُ رضا الله تعالى بالتقوى لأنها روح العمل، وهذا ضَمٌّ لأطراف آى الحج وردٌّ للعجز على الصدر ٠

وختمت آى الحج فى السورة بذكر التقوى لأنها هى الزاد والثمرة واللُّب، هى روح الحج وجميعُ أفعاله صورٌ وأعراض، فمن حج ولم يظفر بالتقوى فحجه جسد بلا روح ومظهر بلا مخبر ؛ ولذا حرص الذكر الحكيم على إشاعة ذكر التقوى فى آى الحج ٠

قوله تعالى (كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ) تأكيد لجملة (كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ) كرره تذكيرا بنعمة التسخير[1] ٠ وفى هذه الآية معنى جديد بعث على تكرار التذكير بنعمة تسخير البدن، وهذا المعنى لم يُذْكَرْ فى آية (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ)، وهو أن الله جل وعلا جعل لنا من لحوم البدن ودمائها معراجا إلى نَيْلِ رضوانه إذا ما قامت على إخلاص وتقوى ؛ وتلك غاية لأهل الإيمان ؛ (وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ) [التوبة ٧٢] ؛ وإذا كانت هذى اللحومُ والدماءُ باباً إلى رضوانه فتلك نعمة أخرى ناشئة عن تسخير البدن.

وبين قوله تعالى (كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) وقوله فى الآية السابقة (كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) مَلْحَظانِ ظاهران فى التركيب:

أولهما: إسناد الفعل " سَخَّرَ " إلى ضمير العظمة فى (سَخَّرْنَاهَا)، ثم إسناده إلى الضمير المستتر العائد عليه جل جلاله فى (سَخَّرَهَا) ٠

وثانيهما: أنه رَتَّبَ على نعمة تسخيرها فى الآية الأولى الترجى (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، وعلل نعمة تسخيرها فى الآية الثانية بالتكبير (لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) ٠

ولعل إسناد " سَخَّرَ " إلى ضمير العظمة فى الآية الأولى لتستحضر النفوسُ مع عظمة النعمة عظمة المنعِم الذى سخرها فيكون شعورها بذلك باعثا على الشكر وأرجى لتحققه ؛ ولذا أُتْبِعَ " سَخَّرْناها " بالترجى فى قوله (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ؛ فعلى قدر عظمة المنعم وعظمة النعمة ينبغى أن يكون الشكر وافيا، وأَنَّى الوفاءُ بحق شكره ؟ ولو كانت الجوارح ألسنة والشجر أقلاما والبحار مدادا، ما أدينا حق شكره ولا على نعمة واحدة، فكيف ونعمه سابغة وعطاؤه لا يُحَدّ وفضله لا يحصى؟! واستهلال الآية بضمير العظمة فى قوله (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا) من براعة الاستهلال لأنه يتناسب مع ضمير العظمة فى (سَخَّرْنَاهَا) لتجرى الآية فى تعظيمه جل جلاله على نهج واحد ٠ ولو قيل: كذلك سخرها لكم، بعدما قال أولاً (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا) لضاع هذا التناسب ٠

وأما الإسناد إلى الضمير المستتر العائد على اسم الجلالة فى قوله (كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) فلمراعاة إفراده جل جلاله بالتكبير له عند النحر ليكون النحر على اسمه وحده لا شريك له، ولا يُكَبَّرُ لأحد سواه ؛ وهذا مناسب لما ترمى إليه الآية

(١) الكشاف ٣/١٥

من الإخلاص والتقوى اللذين يرتفع بهما العمل إلى الله وينال قبوله ورضوانه ؛ ولذا عبرت الآية السابقة باسم الجلاله عند نحر البدن وهى صواف فى قوله (فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ) على الرغم من افتتاحها بضمير العظمة فى قوله (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا) ولو راعى النظم ضمير العظمة الذى افتتحت به لقيل: والبدن جعلناها لكم من شعائرنا فاذكروا اسمنا عليها صواف ٠

ومن التناسب أن ضمير المفرد المستتر يتناسب مع ذكره سبحانه فى الآية كلها باسمه المفرد العلم " الله" لا بضمير العظمة (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ)، وفى تعليل التسخير هنا بالتكبير لمحٌ إلى أن الله تعالى يعطى من فضله العطاء الجزيل على العمل اليسير ؛ منحنا رضوانه – وهو الفضل الأكبر – بلحوم أخلصنا القصد فى تقريبها إليه وأطعمنا منها أنفسنا، وهذا فى مقابل رضوانه تعالى قليل جدا ٠

ولم يرد فى الذكر الحكيم (لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) إلا مع الصيام والحج، وفى التكبير عند النحر معان، منها: تعظيم الله جل جلاله ٠ ومنها: أن الله جل وعلا أكبر من كل نعمة لأنها من عطائه ٠ ومنها: أنه سبحانه هو الذى أقدرنا على نحرها ولولا ذلك ما قدرنا ٠ ومنها: أن التكبير غِبَّ الطاعة شكرٌ لله تعالى على التوفيق إليها ؛ ولذا شُرِعَ التكبير فى العيدين وذكر الزمخشرى أن (لِتُكَبِّرُوا) ضُمِّنَ معنى " لتشكروا " ؛ ولذلك تعدى بـ(على)، وأن فائدة التضمين الاختصار بأن دَلَّ الفعل على معنى فعلين " تكبروا، وتشكروا"، والمعنى (لتشكروا الله على هدايته إياكم لأعلام دينه ومناسك حجه بأن تكبروا وتهللوا، فاخْتُصِرَ الكلام بأن ضُمِّنَ التكبير معنى الشكر وعُدِّىَ تعديته) [1] وبالتضمين قال البقاعى[2] ٠

وأرى أن القول بالتضمين ضعيف لأمور:

الأول: لما يترتب عليه من التكرار ؛ إذ تكون جملة (لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) بمعنى لتشكروه تكرارا للشكر المذكور فى الآية السابقة (كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ٠

والثانى: أن التضمين لا يكشف سر التعدية بحرف الجر (على)، وهو يدل على التَّمَكُّن: إما من نحر البُدْن مع أنها أعظم منا أجسادا، وإما تمكُّنا من أداء الحج ومناسكه

(١) الكشاف ٣/١٥
(٢) ينظر نظم الدرر ٥/١٥٥

على الوجه الأوفى، وهذا المعنى فيه لمح من قوله تعالى فى سورة البقرة (وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ) [البقرة ١٩٦] ٠

والثالث: أن التكبير أنسب لسياق الآية من الشكر ؛ لأن تنزيه المولى جل جلاله عن أن تناله لحوم البدن ودماؤها يناسبه تكبيره ؛ فالله تعالى أكبر وأجلّ ٠

وعلى حين جعل الزمخشرى التكبير هنا مضمنا معنى الشكر فتعدى بـ (على)، فإنه جعله مضمنا معنى الحمد فى آية الصيام (وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [البقرة ١٨٥]، قال الزمخشرى (وإنما عدى فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمنا معنى الحمد، كأنه قيل: ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم) [(١)]، ولعل الزمخشرى لجأ إلى القول بأن التكبير فى آية الصيام مُضَمَّنٌ معنى الحمد لا الشكر لأن الله جل جلاله ذيَّلَ آية الصيام بقوله (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، ولولا ذلك لقال الزمخشرى إن التكبير مضمن معنى الشكر كما قال فى آية الحج ؛ ومن أجل هذا أرى أن القول بالتضمين فى الآيتين ضعيف، وأن الأولى بقاء الفعل " لتكبروا " على ظاهر معناه دون أن يتضمن معنى " لتحمدوا أو لتشكروا " ؛ لأن التكبير فى السياقين لا يَسُدُّ غيرُه مسدَّه ولا يبلغ مبلغه ٠

وقوله تعالى (عَلَى مَا هَدَاكُمْ) بُنِيَ على إيجاز بالحذف يحتمل معنيين:

أولهما: على ما هداكم إليه من نحر البدن والأكل منها والإطعام وفتح لكم بذلك بابا إلى رضوانه ٠

وثانيهما: على ما هداكم إليه من دين الإسلام وأداء مناسك الحج فيندرج فيه نحر البدن وغيره من المناسك [(٢)]، ولو صُرِّحَ فيه بالمحذوف لما احتمل غيره، وهذا وجهٌ من بلاغة القرآن عظيم النفع جليل الأثر، يفتح لاجتهاد العلماء أبوابا ٠

و (ما) فى قوله (عَلَى مَا هَدَاكُمْ) موصولة، أى لتكبروا الله على الذى هداكم إليه، وأفاد الموصول التعظيم، أى هداكم إلى شىء عظيم لا تُكْتَنَهُ عظمتُه ٠

قوله تعالى (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) جملة مستأنفة لخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأمره بأن يبشر المحسنين، وتوجيه الخطاب إليه صلى الله عليه وسلم ومجيؤه على صيغة الأمر لمزيد العناية والتشريف والتكريم لهؤلاء المحسنين ٠ والمبشَّرُ به شئٌ عظيم، وتَرْكُ ذِكْرِه فى الجملة أبلغُ من ذكره٠ والواو عاطفة والمعطوف عليه محذوف وهو مقابل لما ذُكِرَ بعدها، والتقدير: أنذر المسيئين وبشر المحسنين ؛ فدلَّ حرف العطف على المعطوف عليه، وذكر البقاعى أن التذييل صرح بالبشارة وحذف النذارة لأن مقام الحج ومعالم العَجِّ والثَّجِّ

(١) الكشاف ١/ ٣٣٧
(٢) ينظر تفاسير الطبرى ١٢٢/١٧ والكشاف ١٥/٣ والقرطبى ١٧/ ٤٤٥٨

بالبشارة أليق [1]، وهذه اللطيفة تنطبق على جملة (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) كأنه قيل: أنذر المتكبرين وبشر المخبتين، وذَكَرَ الإخبات لأنه أولى بالحاج، لا تخفى المناسبة بين (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) ؛ إذ التواضع من الإحسان، وذِكْرُ الإحسان بعد الإخبات من ذكر العام بعد الخاص للتنبيه على أن التواضع ليس هو الصفة الوحيدة التى يتصف بها الحاج ويظفر بها فى حجه، بل إنه يتصف بغيرها من صفات الخير ومكارم الأخلاق ويظفر بها ٠ والمخبتات والمحسنات داخلات فى البشرى مع المخبتين والمحسنين، وذِكْرُ المخبتين والمحسنين من باب التغليب ٠ والإحسان هنا عام يشمل الإحسان فى أداء الحج والمناسك وغيره، فهو خلق ينبغى أن يتصف به الحاج فى حجه وبعد حجه وفى حياته كلها ٠

ولا يخفى ما فى قوله (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) من حسن الختام لآى الحج، لأنها زفت البشرى لوفد الله وزواره فرحا وسروا بتوفيقهم لتلك الطاعة وكناية عن الرضا والقبول من المولى جل جلاله ٠ وفى ختم آى الحج بذكر التقوى فى قوله (وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ) تذكير بما افتتحت به السورة من الأمر بالتقوى فى قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) ٠ وإتباع التقوى بالإحسان فى قوله (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) لأن الإحسان أساسه تقوى الله والخوف منه ٠ وهذا الختام بذكر التقوى والإحسان يناسب التقديم بهما بين يدى آى الحج فى سورة البقرة فى قوله تعالى (وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)[البقرة ١٩٤] (وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة ١٩٥]، فالحاج الذى بدأ رحلته عازما على اغتنام التقوى والإحسان ينالهما فى ختام رحلته كما ينال الفائز جائزته، وتكون البشرى التى بشره الله تعالى بها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) هى آخر ما يقرع سمعه ويبقى فى نفسه حتى يلقى الله فيجد ما بُشِّرَ به مما لاعينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر ٠

* * *

ومن مواقع العظة فى آيات الحج فى سورة الحج الأمر بالتقوى فى صدر السورة وفى وسط آيات الحج وفى آخر آيات الحج، ففى صدر السورة (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) [الحج ١]، وهذا الاستهلال من معين قوله تعالى فى آيات الحج فى سورة البقرة (وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) [البقرة ٢٠٣] وفى سورة المائدة (وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) [المائدة ٩٦] ٠

وفى وسط آيات الحج فى السورة قوله تعالى (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ)، وفى آخرها (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ

(١) ينظر نظم الدرر ٥/١٥٥ ، ١٥٦

كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)، وذكر التقوى والإحسان فى هذه الآية التى ختمت الحديث عن الحج فى سورة الحج كذكرهما فى آيات الحج فى سورتى البقرة والمائدة ؛ وبهذا تتلاقى أطراف آيات الحج فى سياقاته الثلاثة الطوال فى سور (البقرة – والمائدة – والحج) ويأنس بعضها ببعض، ويمد بعضها بعضا، حتى تكون فى تناسبها وتلاؤمها كأنها آية واحدة .

وتَخَلَّلَ آياتِ الحج فى سورة الحج النهيُ عن الشرك بالله تعالى وقول الزور وتشبيه المشرك بمن خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق، وهذا مناسب لسياق آيات الحج فى السورة من ناحيتين، الأولى: أن توحيد الله جل جلاله والنهى عن الشرك به هى كلمة الله تعالى لخليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين بوء له مكان البيت فى قوله تعالى (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً) . والثانية: أن نحر الأنعام والتقرب بها للآلهة كان من أظهر صور الشرك فى الجاهلية ؛ لذا حَرَصَت آياتُ الحج فى السورة على النهى عن الشرك والأمر بتوحيد الله جل جلاله، كما قرنت ذكر الأنعام بالنهي عن اجتناب الأوثان والأمر بالإسلام لله وحده فى قوله تعالى (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) .

ومن الموعظة التى تخللت آيات الحج فى هذه السورة وانفردت بها ذِكْرُ المخبتين وصفاتهم فى قوله تعالى (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)، والتواضع أدب سامٍ ينبغى أن يتصف به المؤمن لاسيما فى رحلة الحج التى يكثر فيها الاختلاط والأنكاد والمشقة، ويلجأ العبد الضعيف فيها إلى ربه لجوء تذلل وتواضع ومسكنة ورغبة فى العفو والصفح والرحمة، وهذا حالٌ يدعو إلى التواضع وهضم النفس ؛ ولذا كان من أوصاف المخبتين هنا الوجل عند ذكر الله تعالى والصبر على المصيبة وإقام الصلاة، وكلُّها صفاتٌ تهز النفس هزا وتخفض كبرياءها خفضا .

****

فهرس المراجع

- أحكام القرآن للجصاص ت محمد الصادق قمحاوى دار إحياء التراث العربى بيروت ١٤٠٥هـ.
- إحياء علوم الدين للغزالى ط دار المعرفة بيروت ٠
- الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى مطبوع مع شروح التلخيص نشر دار السرور، بيروت ٠
- الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى مع البغية للشيخ عبد المتعال الصعيدى ط مكتبة الآداب٠
- كتاب الإيضاح فى مناسك الحج للنووى مطبوع مع حاشية ابن حجر الهيثمى عليه ط دار المكتبات ٠
- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د /محمد أبو موسى ط مكتبة وهبة ط ثانية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨
- بيان إعجاز القرآن للخطابى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ت محمد خلف الله أحمد د/محمد زغلول سلام ط دار المعارف ط رابعة ٠
- التشويق إلى حج البيت العتيق لجمال الدين محمد بن المحب الطبرى ت د/ عبدالستار أبو غدة ط دار الأقصى ط أولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م ٠
- تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ط دار الفكر ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م ٠
- تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور ٠ ط دار سحنون بتونس ٠
- تفسير الجلالين لجلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى ط دار الكتب العلمية بيروت ٠
- تفسير روح المعانى للألوسى ط دار الفكر بدون تاريخ ٠
- تفسير الطبرى ط دار الحديث بالقاهرة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م ٠
- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى بهامش تفسير الطبرى ط دار الحديث ٠
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ت محمد إبراهيم البنا وآخرين ط دار الشعب بالقاهرة
- تفسير القرطبى ط دار الريان مصورة عن ط دار الشعب ٠

- التفسير الكبير(مفاتيح الغيب) للرازى ط دار الغد العربى ط أولى ١٤١٢ هـ ١٩٩٢
- تفسير الكشاف للزمخشرى ١٧/١ط مصطفى الحلبى ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م٠
- تفسير المحرر الوجيز لابن عطية ت عبد السلام عبد الشافى ط د ار الكتب العلمية ١٤١٣هـ٠
- جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى ت محمد أبو الفضل إبراهيم وقطامش ط المؤسسة العربية الحديثة ط أولى ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م ٠
- حاشية ابن حجر الهيثمى على كتاب الإيضاح فى مناسك الحج للنووى ط دار المكتبات٠
- حاشية السيد الشريف الجرجانى على الكشاف (بهامش الكشاف ط الحلبى) ٠
- حاشية السيد الشريف الجرجانى على المطول (بهامش المطول) ٠
- خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى نشر دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة.
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ت محمود شاكر ط الخانجى ٠
- ربيع الأبرار للزمخشرى ت د / سليم النعيمى مطبعة العانى بغداد ٠
- سنن ابن ماجه ت محمد فؤاد عبد الباقى ط دار الفكر ٠
- سنن أبى داود ت محمد محيى الدين عبد الحميد ط دار الفكر ٠
- سنن البيهقى ت محمد عبد القادر عطا ط مكتبة الباز بمكة المكرمة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م
- سنن الترمذى ت أحمد محمد شاكر وآخرين ط دار إحياء التراث العربى ٠
- سنن الدارقطنى ت السيد عبد الله هاشم يمانى المدنى ط دار المعرفة بيروت ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م ٠
- شرح قطر الندى لابن هشام ت محمد محيى الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية ١٤٣٣ هـ ٠
- صبح الأعشى للقلقشندى ت عبد القادر زكار وزارة الثقافة – دمشق ١٩٨١م ٠
- صحيح البخارى ت د. مصطفى ديب البغا ط دار ابن كثير بيروت ط ثالثة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ٠
- صحيح ابن حبان ط دار الكتب العلمية ٠

- صحيح مسلم مع شرح النووى ط دار إحياء التراث العربى بيروت ط ثانية ١٣٩٢م ٠
- الصناعتين لأبى هلال العسكرى ت البجاوى وأبو الفضل ط المكتبة العصرية بيروت ١٤٠٦هـ.
- العقد الفريد لابن عبد ربه ت محمد سعيد العريان ط ٠ دار الفكر ٠ طبعة أخرى: لجنة التأليف ٠
- علم البديع د /بسيونى فيود ط مؤسسة المختار ط ثالثة ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م ٠
- عمدة القارى بشرح صحيح البخارى للعينى ط مصطفى الحلبى ٠ طبعة أخرى ط دار إحياء التراث العربى بيروت ٠
- كنز العمال للمتقى بن حسام الدين الهندى ت محمود عمر الدمياطى ط دار الكتب العلمية ط أولى٠
- لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف ٠
- مجمع الزوائد للهيثمى ط دار الريان للتراث بالقاهرة ودار الكتاب بيروت ٠
- المعجم الصغير للطبرانى ط دار الكتب العلمية ٠
- المعجم الكبير للطبرانى ط دار الكتب العلمية ٠
- المستدرك على الصحيحين للحاكم ت مصطفى عبد القادر ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١هـ
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ط مؤسسة قرطبة بمصر ٠
- مسند البزار ت د / محفوظ الرحمن زين الدين ط مؤسسة علوم القرآن بيروت ط أولى ١٤٠٩ هـ ٠
- المفردات فى غريب القرآن للراغب ت محمد سيد كيلانى ط دار المعرفة بيروت ٠
- الموطأ للإمام مالك ط دار الشعب ٠
- الانتصاف لابن المُنَيَّر مطبوع بحاشية الكشاف ط مصطفى الحلبى ٠
- نظم الدرر للبقاعى نشره عبد الرزاق غالب المهدى ط دار الكتب العلمية ٠

****

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــوع	الصفحة
– مقدمة	٣٤٩
* من بلاغة آيات الحج فى سورة الحج	٣٥٠
– (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ٠٠) الحج ٢٥	٣٥٢
– (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ٠٠) الحج ٢٦	٣٦١
– (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ٠٠) الحج ٢٧	٣٦٣
– (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ٠٠) الحج ٢٨	٣٦٨
– (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) الحج ٢٩	٣٧٠
– (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ٠٠) الحج ٣٠	٣٨٣
– (حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء) الحج ٣١	٣٨٩
– (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) الحج ٣٢	٣٩٣
– (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) الحج ٣٣	٣٩٥
– (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ٠٠) الحج ٣٤	٣٩٨
– (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ٠٠) الحج ٣٥	٤٠١
– (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ٠٠) الحج ٣٦	٤٠٨
– (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ٠٠) الحج ٣٧	٤١٦
– موقع الموعظة فى آيات الحج فى سورة الحج	٤٢٢
* فهرس المراجع	٤٢٤
* فهرس الموضوعات	٤٢٧

****